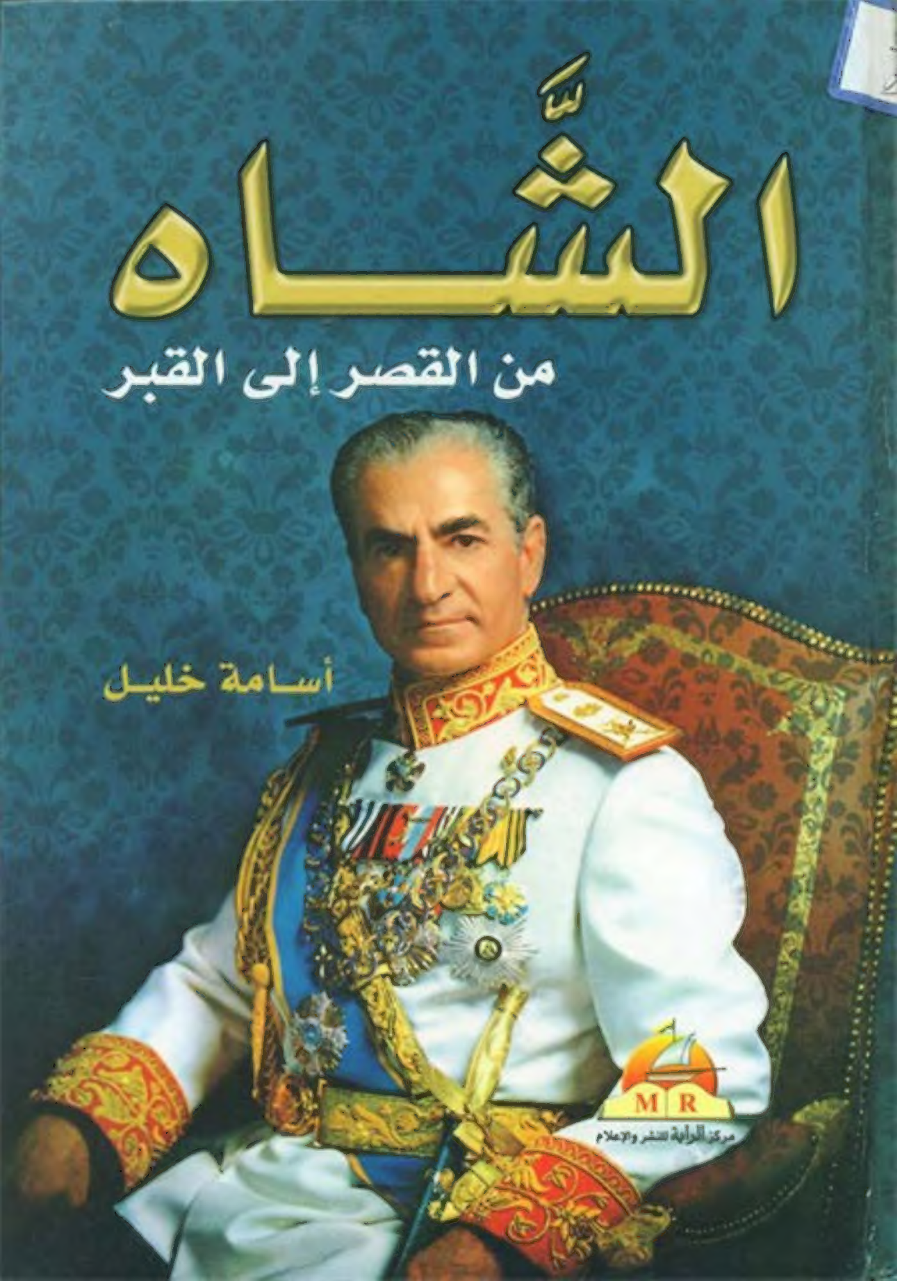

الشّاه
من القصر إلى القبر
أسامة خليل
M R
مركز الراية للنشر والإعلام

الشـــــاة...
من القصر إلى القبر
للملوك.. أسرار

الشــــاة...

من القصر إلى القبر

للملوك.. أسرار

تأليف

أسامة خليل

الناشــر

مركز الراية للنشر والإعلام



• مركز الراية هو دار نشر حرة مستقلة تتبنى قضايا جادة وهادفة

• وقد تم تأسيس هذا المركز من وحى إحساسنا بدور الكلمة المطبوعة فى التعبير عن قضايانا المصيرية، وكشف أوجه القصور، وتصحيح الأوضاع المقلوبة. أو المفاهيم الخاطئة، وإثراء حياتنا الفكرية والثقافية.

• ورغم أن المركز لا يزال فى بداياته الأولى إلا أن حسن استقبال القارئ العربى من المحيط إلى الخليج لمطبوعاتنا جعلنا ندرك حجم المسئولية الملقاة على عاتقنا. ونحاول قدر جهدنا تقديم كل جديد وجاد وهادف.

الناشر

أحمد فكرى

اسم الكتاب	الشاة.. من القصر إلى القبر
اسم المؤلف	أسامه خليل
المراجعه اللغويه	المؤلف
رقم الإيداع	٥٧٠٢ / ١٩٩٥
جمع الكترونى	فور إتش م: ٦٦٧٤٣٣٥/ ٠١٠
فكرة الكتاب	أحمد فكرى
الإشراف العام	كريم أحمد فكرى

٢٠١٠

مركز الراية للنشر والإعلام

الإدارة والتوزيع : ٣٠ ميدان الحسين ـ مكتبة فكرى
القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٥٩٢٦٢١٩

البريد الإلكترونى :

e- mail: alraya 93 @ hotmail.Com

e- mail : alraya 93 @ Yahoo.Com

فاكس : ٠٠٢٠٢٧٨٧٠٩٠٦

إهداء

الحمد لله ولى الصالحين والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين.

وبعد، إلى كل من

يستطيع أن يقرأ ما بين السطور من مستور..

إلى كل من

يعلم أن الملوك وإن علو تسرى عليهم الأحكام..

إلى كل من

يوقن بأن الكلمة الأولى والأخيرة هى دائمًا وأبدًا.. لله تعالى.

المؤلف	الناشر
أسامة خليل	أحمد فكرى

العرش المفقود



■■ وكانت الدموع فى عينى الملك.. عندما تقابل مع ولى العهد.. الذى لم يستطع أن ينطق بكلمة من شدة التأثر... وقال الملك له:

هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش؟!

العرش المفقود

عرش الطاووس.. عرش فارس.. التى عرفت على مدى الأيام بدولة الفرس..

وجاء التاريخ بعد ذلك ليشهد عمليات تقسيم.. وتقليص لهذه الدولة الكبرى..

قياصرة الروس الأقوياء استولوا على القوقاز.. وبريطانيا اقتطعت الخليج.. وساعدت القبائل المتناثرة على تكوين دويلات لها...

والقبائل الأفغانية استقلت بالأرض التى تقيم عليها مكونة دولة أفغانستان.

وهكذا جاء التاريخ الحديث وقد تقلصت دولة الفرس إلى ما نرى حاليًا من حدود لإيران.

ومن الناحية الشكلية كان حكام أو أباطرة أسرة قاجار التى سبقت حكم آل بهلولى على عرش إيران يحكمون فارس بحدود إيران الراهنة العاصمة وضواحيها فقط.

ثم جاء رضا خان شاه لينقض على آل قاجار ويقصيهم بقرار ديموقراطى من البرلمان عن الحكم سنة ١٩٢٥ .

وبدأ عهد حكم آل بهلوى فى التسلسل الطبيعى لوراثة عرش إيران، ولكن قصتها مع العرش بدأت بالأب رضا خان.

التقت طموح رضا خان رضا بهلوى مع الظروف المضطربة والأحوال المتدهورة فى إيران كلها فى كل الوجوه.

وساعدته التطورات على إزاحة الأسرة الحاكمة فى ذلك الوقت «أسرة قاجار» واعتلاء العرش ثم توريثه لابنه محمد رضا بهلوى «الإمبراطور الشاهنشاه» الذى اضطر هو الآخر أن يترك إيران تحت ضغط الظروف.

وشاءت إرادة العلى القدير تعالى أن يموت الأب منشئ الأسرة مطرودا مفتريا وأن يكون لابنه من بعده نفس المصير، وأن يموت مطرودًا مفتريًا.

اختلفت البدايات فالأب نشأ يتيمًا وكافح وناضل بل وتآمر لينشئ حكم أسرة بهلوى، والابن نشأ معززا مكرمًا فى قصر ملكى وتربى تربية خاصة ليصبح إمبراطورًا وأصبح بالفعل إمبراطور، ولكن.

اختلفت البدايات ولكن النهايات كانت واحدة.

رضا خان.. الطفل اليتيم

وفى عجالة نلقى نظرة على حياة الأب رضا خان الذى ولد فى قرية «الاشارات» الجبلية فى شمال إيران القريبة من الحدود مع روسيا.

كان والده ضابطًا فى جيش فارس وحملته وظيفته إلى هذا المكان ومات هذا الوالد صغيرًا حيث كان هذا الابن «رضا خان» طفلاً صغيراً تاركًا الأم وطفلها.

رضا خان.. الجندى

وكان قرار خان عندما شب أن يكون رجلاً عسكريًا متمشيًا مع منطق الأمور لكونه ابن ضابط سابق؛ ولأن له ـ وهو الأهم ـ قدراته الجسمانية التى تؤهله لذلك كان فارع الطول، عريض المنكبين قوى البنيان.

وكان هناك أيضًا ولعه الشديد بالعسكرية والبطولة وأساطير الحرب القديمة.

والتحق بالفرقة القوقازية الإيرانية جنديًا.

رضا خان.. القائد العسكرى

وكانت الفرقة القوقازية هى الرمز الوحيد الباقى فى إيران كلها للعسكرية المنظمة، وكانت تلقى من الحكومة الدعم والرعاية حتى أنه كان يستجلب لها الخبراء من الخارج ومن روسيا للتدريب ولكنهمن بمرور الوقت أصبحوا القادة الفعليين.

وقد أهلت إمكانيات رضا خان الشخصية وطموحاته لأن يُحكم سيطرته الشخصية على الفرقة بأكملها، حيث شجاعته، بل وأحيانًا تهوره فى العمليات العسكرية موضع تقدير وإعجاب الجميع.

ولم تكن هذه العمليات والمهام العسكرية للفرقة تخرج فى ذلك الوقت عن مواجهة هذه القبيلة أو تلك تشق عصا الطاعة على الحكومة أو إقليم من أقاليم إيران المترامية يعلن العصيان.

وفى عهد الشاه ناصر الدين كانت شهرة رضا خان تؤهله ليرضى الشاه عنه، فرقى إلى مرتبة قائد الفرقة، وهنا استطاع باقتدار أن يخلص الفرقة من الضباط الروس الذين كانوا يسيطرون عليها، ثم أصبح سريعًا قائدًا للواء القوقاز كله، ثم قائدًا عاما للجيش بمساعدة رئيس الوزراء - آنذاك - ضياء الدين.

رضا خان.. السياسى

ثم هذا هو يقود ألفين من جنوده فى الفرقة القوقازية فى انقلاب غير دموى، يسيطر به على طهران العاصمة ضد رئيس الوزراء ضياء الدين ولصالح الشاه ناصر الدين الذى يكافئه بمنصب وزير الدفاع ليصبح رئيسا لوزراء إيران عام ١٩٢٣، وليكون القوة الفعلية فى طهران وحكومتها، بل أقوى سياسى فى إيران كلها.

رضا خان.. رضا شاه

وفى هذا الوقت كان رضا خان هو الحاكم الفعلى لإيران.. بالرغم من وجود أمهر شاه.. إمبراطور إيران فى ذلك الوقت، ولكنه كان ملكا بالاسم فقط.

وفى عام ١٩٢٥ اتخذت الجمعية الوطنية قرارًا بإنهاء حكم أسرة قاجار بعد حكم دام ١٣٢ عامًا.

وفى السابع عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٢٥ أعلن رضا خان.. رضا بهلوى شاهًا جديدًا لإيران.

رضا شاه.. الأب

هذا عن رضا شاه ثم السياسى ثم الملك.

فماذا عن حياته الشخصية.. حياته الاجتماعية.

كان رضا شاه الأب ككل الرجال فى ذلك العصر.. يتزوجون زواجًا تقليديًا عاديًا مرة، واثنين، وثلاثة، وهو فى كل الأمور، المسيطر، الآمر الناهى، فلا صوت ولا إرادة لأحد فى الأسرة.. سواه.

تزوج رضا خان من ابنة عمه وهو فى السابعة عشرة من عمره، ثم تزوج وهو جندى فى الفرقة القوقازية من شقيقة زميله فى الجندية، ثم تزوج للمرة الثالثة وهو على أبواب المجد.

ولكن تاج الملوك، الزوجة الثالثة، أم محمد رضا ولى العهد.. والأميرتين شمس الملوك وأشرف.. والأمير على رضا.. كانت الأثيرة لديه المؤثرة فيه، ومن ثم حرصت على أن يكون بيتها هو البيت الرئيس، وأن تكون هى إمبراطورة إيران المعلنة.. وأن يكون ابنها هو ولى العهد، وأن تحتل هى وأولادها الصدارة فى القصر الإمبراطورى، وأن يكون لباقى الزوجات

والأولاد الجوانب الخلفية فى هذا القصر، بل والجوانب الخلفية فى حياة الأب ذاته.

وكانت محصلة هذه الزيجات الثلاث.. أحد عشر ابنًا.. بين ذكر وانثى.

رضا شاه.. والحرب

ما كادت الأمور تستقر داخليًا لرضا شاه ويبدأ برنامجه الإصلاحى لأمور إيران المتدهورة حتى كان الخطر الخارجى الداهم.

اجتاحت الجحافل الألمانية بولندا فى ٢ سبتمبر ١٩٣٩، وبدأت الحرب العالمية الثانية.

وكان لألمانيا حضور قوى فى إيران.. فالرجل الجالس على العرش «رضا شاه» رجل عسكرى يميل إلى النازية مقتنع بالحضارة الألمانية التى نقل الكثير منها فى العمارة الحديثة التى انتشرت فى المدن الإيرانية، وفى البضائع الألمانية التى تغمر الأسواق وفى نظم العسكرية التى نقلها عن طريق الخبراء العسكريين الألمان إلى جيشه.

وفى أغسطس ١٩٤١ دخلت قوات الحلفاء الأراضى الإيرانية وبالطبع كان رضا شاه مستهدفًا.

وتحسبًا لما قد يحدث قام شاه بتهجير أسرته إلى أصفهان التى تبعد عن طهران بحوالى ٣٥٠ كيلو مترًا.

تنازل عن العرش

ووقع ما كان الشاه ينتظره فقد تلاحقت الأحداث بسرعة ليضطر هو إلى التنازل عن العرش لابنه محمد رضا بهلوى.. ليعلن شاهًا لإيران فى ٦١ سبتمبر ١٩٤١ وكان عمره فى ذلك الوقت ٢٢ عاما.

ورحل الشاه المخلوع ليلحق بأسرته المهجرة فى أصفهان..

رجيـــل

ولكن لم يكن ابتعاد رضا شاه عن الحكم وارتحاله عن العاصمة طهران كافيا فى نظر أعدائه لانتهاء نفوذه وسلطانه، بل رأوا أنه لابد من أن يرحل عن إيران كلها.

وفى موكب حزين يغادر أصفهان إلى ميناء بندر عباس على بعد حوالى ٦٠٠ كيلو متر يضم أسرة الشاه المنفى، ليركب سفينة تتقلهم

اصطحب الشاه أسرته كلها ولم يترك خلفه سوى الأميرة أشرف شقيقة الشاه الجديد محمد رضا بهلوى، وفوزية زوجة ولى العهد التى أصبحت إمبراطورة بالتبعية بمجرد أن حلف زوجها يمين الحكم.

المنفـــى

اختار الشاه المخلوع رضا بهلوى أن يكون منفاه فى الأرجنتين، ولكنه بعد أن ركب السفينة تبين أنها تسير فى اتجاه آخر، وعلم أن الحلفاء اختاروا له أن يُنفى فى جزيرة «موريشيوس» فى جنوب القارة الإفريقية.. حيث انتهى بعد ذلك ليقْيم هو وأسرته فى «جوهانسبرج» عاصمة جنوب إفريقيا.

وفـــاة

وبينما كان الإمبراطور الجديد محمد رضا بهلوى يصارع فى خضم المتاهات التى تركه فيها أبوه أُعلنت وفاة هذا الوالد فى عام ١٩٤٤.

وكما رفضت سلطات الاحتلال الأب حيًا رفضته ميتًا، خوفًا مما قد تسببه عودته من إثارة أشجان هؤلاء المضطهدين من قوات الاحتلال المختلفة.. فيثورون.

ولم يسمح للجثمان الإمبراطورى بالعودة إلى إيران.

إلى القاهرة

وهنا يتدخل الملك فاروق ليصدر أمرًا باستقبال جثمان الإمبراطور الراحل، وأن تتبع فى مراسم جنازته نفس الإجراءات التى اتبعت فى تشييع جنازة والده الراحل الملك فؤاد وأن يدفن أيضا فى مسجد الرفاعى بالقاهرة، حيث دفن الملك فؤاد والخديو إسماعيل.

وحضر أنجال الإمبراطور الراحل إلى القاهرة للاشتراك فى تشييع جنازة والدهم.. وكانت جنازة رسمية عظيمة..

وأخيرًا.. عودة إلى إيران

ولم يستطع الشاه محمد رضا بهلوى بالطبع أن يشارك فى جنازة الأب الراحل.

وظل الشعور بالتقصير لدى الشاه تجاه الوالد الراحل.. رضا شاه، حتى أقام ضريحًا خاصًا فى طهران، نقل إليه بعد ذلك.

...ولكـن

حقق الشاه ما رآه مناسبا لوالده الإمبراطور الذى مات فى الغربة.. ولكن هل حقق وصيته؟!

فماذا عن هذه الوصية؟

الوصيـة

يقول الشاه محمد رضا بهلوى فى وصف آخر لقاء بينه وبين والده: «إنها كانت المرة الأولى فى حياته التى رأى فيها والده يتصرف كأب وليس كملك أو قائد عسكرى».

كانت الدموع فى عينى الرجل العجوز عندما تقابلا، ولم يستطع الابن

الشاب أن ينطق بكلمة واحدة من شدة التأثر.

وكانت ملاحظة الشاه الأب الوحيدة هى عبارة عن سؤال: «هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش؟».

ولم يقل الابن شيئًا واستمر الأب فى كلامه: «أنا لم أفشل فى الاحتفاظ بالعرش، ولكن قوى أقوى منى أحكمت الحصار حولى، لقد احتفظت لك بالعرش.. فهل تستطيع أن تحتفظ به ؟».

ولم يستطع الابن أكثر من أن يومىء برأسه موافقًا.

واستمر الشاه الأب قائلاً.. «انصت يابنى.. لاتقاوم فنحن والعالم أجمع نواجه عاصفة أقوى منا جميعًا فاحن رأسك لها إلى أن تمر».

وتوقف الأب برهة عن الكلام ثم أضاف: «انجب ابنًا» ثم كرر.. «أنجب ابنًا».

وخرج الأب الشاه المخلوع المنفى من الحجرة إلى المنفى، حيث مات هناك ولم يتقابلا بعد ذلك.

هذه هى الوصية.

فماذا حقق الشاه الابن محمد رضا بهلوى منها ؟ هذا هو السؤال الذى ظل يطرح نفسه دائمًا على الشاه.

يحاول أن يستلهم النصيحة من توجيهات الأب الراحل المحنك، ويحاول أن يحقق توصياته.

فلنر ماذا أسفر عنه الأمر.

ولكن قبل أن نفعل ذلك، لابد وأن نربط الحياتين للشاهين.

■ ■ ■

التركة المثقلة



■■ واعتلى الإمبراطور الجديد العرش فى ظل ظروف مغايرة تمامًا ! وتركه الملك فى دوامة أكثر من تلك التى اعتلى هو العرش خلالها وورث ولى العهد التركة، ولم يكن يتوقع أنها بتلك القسوة.. فماذا فعلت به الأيام؟!.

الشاه الابن محمد رضا بهلوى

اعتلى الشاه محمد رضا بهلوى العرش بتنازل والده الشاه رضا بهلوى عنه تحت ضغط قوات الاحتلال.

وكان الأب الشاه السابق قد حرص على أن يربى بنفسه وتحت عينه ابنه.. محمد رضا ولى العهد، ليكون ملكًا من بعده على البلاد.

صاحب الجلالة.. الطفل

ومنذ اللحظات الأولى لحكم رضا شاه بدأ فى هذه المهمة.

وكان محمد رضا فى السادسة من عمره، عندما اعتلى أبوه عرش البلاد وعندما انتقلت أسرة بهلوى لتقيم فى قصر «جولستان» الإمبراطورى فى طهران.. والذى كان مقرًا للملوك السابقين من أسرة قاجار التى كانت تسبقه فى حكم إيران.

كان للأمير الصغير ولى العهد جناح خاص به فى القصر الإمبراطورى، يضمه هو ومدرسيه وحرسه الخاص وبقية العاملين فى خدمته خاصة.

وكانت له حياة خاصة فعلاً وتربية خاصة، ودروس خاصة، كلها ملكية، وكلها عسكرية جافة أيضا.. لدرجة مؤلمة.

وكان على الجميع.. منذ ذلك الوقت والسن المبكرة بمن فيهم أفراد الأسرة المالكة أن ينادوه بلقب «صاحب الجلالة» لقد رتب الأب الشاه كل شىء.. للابن الشاه المنتظر لكى يحكم ويستقر، وينجح.. ولكن كل ذلك كان شئ.. وترتيب الله تعالى والأقدار.. شىء آخر.

تركة مثقلة

واعتلى الامبراطور الجديد.. محمد رضا بهلوى العرش فى ظروف مغايرة تمامًا لم كان ينتظر، ولما كان يعد له.

ولو استطاع الشاه الأب أن يجنب ابنه أى شىء من ذلك لفعل، ولكن الظروف أجبرته على أن يتركه فى دوامة أكثر من تلك التى اعتلى هو العرش خلالها.

ومع اختلاف الشخصية والمكونات الذاتية تصبح المقارنة رهيبة.

فالأب هو الصلب قوى الشخصية، قوى الشكيمة، القادر على مواجهة الظروف، المتمرس على المؤامرات.

والابن منعم مترف لين الجانب خالٍ تمامًا من التجربة.

ثم هناك اختلاف آخر، ربما أهم وأكبر وهو أن الأب والابن اعتلى كل منهما الحكم فى ظروف قاسية ولكن الأب كان يعلم ما هو مقدِم عليه.. بل ويسعى له ولكن الظروف - التى لاشك هى أقسى - فرضت على الابن فرضًا فى وقت لا تسمح له إمكانياته الذاتية ولا الظروف القائمة بمجرد.. مواجهتها.

ونظرة واحدة سريعة تكفى لتوضيح الأمر فى الحالتين.

آل قاجار.. وإرهاصات السقوط

عندما كان رضا خان يسعى إلى الحكم على رأس الدولة ملوك من آل قاجار.

وكما سبق أن أشرنا فى الكلام عن رضا خان أنه لم تكن إمكانياته الذاتية فقط التى أوصلته إلى الحكم، وأن يقطع المسافة بين كونه قائدًا عسكريًا عام ١٩١٩ ليكون ملكًا للبلاد عام ١٩٢٥ فى هذه الفترة الزمنية القصيرة وأن هناك كثيرا من العوامل الداخلية تضافرت وتزامنت وتداخلت لتؤدى إلى تدهور إيران فى كل النواحى لتفرض ضرورة التغيير، وتحتم سقوط النظام الموجود فى يد من يريد، وكان هذا الشخص موجودًا بالفعل

ويسعى إلى ذلك، وهو رضا خان.. رضا شاه.

فماذا عن أحوال إيران فى ذلك الوقت؟

دولة من القرون الوسطى

إيران هى فارس أو دولة الفرس.. ذات التاريخ الطويل العريض الضارب بجذوره فى أعماق التاريخ البشرى والحضارات.

وقد ظلت تحتفظ باسم فارس حتى العقد الرابع من القرن العشرين، وبالتحديد عام ١٩٣٥ حيث تغير اسمها إلى إيران.

ولكن التاريخ شىء والواقع الذى كانت تعيشه إيران فى هذا القرن العشرين شىء، إنها ببساطة لم تكن تمت بأية صلة لهذا القرن، كانت دولة تعيش فى القرون الوسطى بكل ما تحمل هذه الكلمة، ويحمل هذا الوصف من معنى.

النظام الإدارى

من الناحية الإدارية لنظام الحكم كانت مساحة إيران التى تزيد قليلاً عن مليون ونصف المليون كيلو متر مربع، مقسمة إلى عشرة أقاليم.

ولم يكن بين هذه الأقاليم أى رابط من أى نوع، لا سياسى أو اجتماعى ولا حتى أرضى.

فمن الناحية الجغرافية، لم تكن هناك أرض بالمعنى الكامل فلم يكن بين هذه الأقاليم وبعضها أية طرق للمواصلات، بل وكانت هناك فى بعض المواقع عوائق طبيعية تفصل بينها تمامًا، حتى إن المسافر بين هذه الأقاليم كان يصعد جبالاً.. ويقطع سهولاً.. بل وأحيانا كان عليه أن يعبر أراضى دولة أخرى ليصل إلى غايته.

ولم تكن الروابط الجغرافية بين هذه الأقاليم والعاصمة طهران، بأفضل مما هى بينها وبين بعضها البعض فمثلا على المسافر بين العاصمة مقر الحكم وبين إقليم كوزستان، أن يعبر مضطرًا الأراضى العراقية، وهذا الذى فى خراسان لابد أن يتعامل أولاً مع الأراضى الروسية.

وتبع هذا التفتت الجغرافى تفكك فى كل الروابط الاجتماعية والسياسية، حتى إن الأمر كان يتطور فى كثير من الأحيان إلى صدام مسلح بين هذه الأقاليم بعضها البعض، وبين بعضها والحكومة المركزية - إن جازت هذه التسمية - فى طهران، بالرغم من أن حكام الأقاليم كانوا يعتبرون وكلاء للشاه.

كما ساعد ذلك أيضا على استمرار النظام القبلى.

الحياة الاجتماعية

كان النظام القبلى هو الشكل الأعم للحياة الاجتماعية فى إيران فى ذلك الوقت بكل سماته الجاهلية.

وكان الشعب فى عمومه فقيرًا متخلفًا.. لا مجارى.. ولا مدارس ولا خدمات من أى نوع حتى الخدمات الصحية.

كانت نسبة الأمية تصل إلى ٩٨ بالمائة ومعدل الأعمار يتراوح ما بين ٣٠ - ٤٠ سنة فقط، وكان رجل الدين (الملا) هو فقط الذى يعرف القراءة والكتابة.

ولم تكن للمرأة فى ذلك العصر أية حقوق مدنية على الإطلاق.. كان عليهن الالتفاف «بالشادور» وهو الحجاب الإيرانى الذى يغطى المرأة كلها من قمة رأسها منسدلاً على جسدها، وذلك إذا خرجن من المنازل، أما داخلها فلم يكن لهن سوى الانصياع الكامل للزوج الذى من حقه أن يتزوج

اكثر من امرأة دون أى اعتراض من إحداهن، وكان عليهن فقط أن يشغلن أنفسهن بمسائل المأكل والمشرب، طبقا للإمكانيات التى يوفرها الزوج ويتفرغن لإنجاب الأطفال بأى عدد.

الحالة الاقتصادية

كانت إيران فى ذلك الوقت دولة مفلسة خربة، يقوم اقتصادها أساسًا على الزراعة، التى كانت تعانى من الإقطاع الطاحن، حيث يتحكم ملاك الأراضى فى كل شىء، وكان يطلق عليهم «الألف أسرة» كناية عن قلة عددهم بالنسبة لمجموع الشعب البالغ حوالى ١٠ ملايين نسمة.

وكانت هناك القبائل التى تعيش على تربية الأغنام، والتى كان التخلف والفقر يأخذ بتلابيبها.

ثم هناك التجار والحرفيون فى المدن الكبيرة، حيث التجارة النشطة بين الأقاليم وبعضها البعض، ومع خارج البلاد أيضا.

والنفط كان موجودًا ومعروفًا منذ القدم، ولكن إيران لم يكن لديها الإمكانيات التى تساعدها على الاستفادة منه بشكل فعلى، وكل ما كانت تحصل عليه إيران من عوائد النفط فى هذا الوقت الحرج، كان ٢٠ ألف دولار.. مقابل حق الامتياز لاستغلال البترول الذى مُنح للانجليزى دار كاى.

والكافيار ومصادر الأسماك كانت هى الأخرى تمثل مصدرًا لابأس به للبلاد، وكان التصرف فيها من حق الشاه.

أما الإيرادات السيادية للدولة فكانت قاصرة على الضرائب، وكان حكام الأقاليم هم الذين يجمعونها كوكلاء للشاه، ويأخذون منها ما يكفيهم ثم يبعثون بالنذر اليسير منها إلى طهران.

أما البنية الاقتصادية الأساسية من طرق ومواصلات وغيرها فلم يكن لها وجود بالمرة.

وقد أدى كل ذلك إلى خراب حقيقى، وأفلست الخزينة الحكومية حتى كان من المعتاد فى كثير من الأحيان أن يلجأ الشاه إلى الاقتراض من التجار، وأحيانا إلى المعونات الأجنبية.

وقد حدث فعلاً أن قام أحد الملوك من أسرة قاجار ببيع كل مصادر الكافيار لروسيا، وقام بتقديم تنازلات وامتيازات لبريطانيا مقابل أموال، وقام آخر بعقد معاهدة مع بريطانيا تحصل بموجبها إيران على معونات مالية وعسكرية، مقابل وجود قوات بريطانية فى إيران.

الحالة السياسية

كانت الحالة السياسية فى إيران فى ذلك الوقت هى أسوأ الأمور، حيث تبلوت فيها كل نواحى الخراب والإفلاس السابقة تناولها.

وقد تميز الحكام المتأخرون من أسرة قاجار بالضعف الشديد، حتى كان الواحد منهم فى كثير من الأحيان مجرد رمز بلا أدنى فاعلية.

وكانت القوة السياسية الحقيقية تتمثل فى الإقطاعيين، ورؤساء القبائل وحكام الأقاليم وكان كل منهم يحكم منطقة نفوذه بأسلوبه الخاص، ولايدين للشاه إلا بالقليل من الولاء والاحترام.

وكان لكل من هؤلاء جيشه الخاص من المحاربين الأقوياء، للدفاع عن مصالحه، حتى ضد الشاه نفسه، حيث كان كل منهم يجمع من القوة الاقتصادية والقوة العسكرية، التى يفتقر إليها الشاه.

وكانت البلاد مرتعًا خصبًا للنفوذ الأجنبى، خاصة روسيا وبريطانيا بما أتاحته الاتفاقيات التى أُبرمت، وأيضا بسبب غياب القوة الفعلية للحكومة المركزية.

وفى الواقع كان هناك صراع حقيقى بين هاتين الدولتين على الساحة الإيرانية.

ليس فقط فى المجالات الاقتصادية، بل أيضا على مستوى العمل السياسى.

ومن هنان كان الصراع.

ولعب حكام إيران من ملوك أسرة قاجار على هذا الوتر الحساس، فهذا يلجأ إلى روسيا لتدعمه، فتميل كفة الأمور كلها فى صالحها، وذاك ملك آخر يلجأ إلى انجلترا لتدعمه فتميل كفة كل الأمور فى صالحها ولم يخل الأمر يومًا من وجود ملك آخر يلعب على التناقض بين الدولتين فيستفيد من هذه وتلك.

ولم يخل الأمر أيضًا من ملك آخر يوقع الفتنة بينهما وينعم هو ببعض الراحة من تدخلهما فى كل شؤون إيران فى فترة الصدام بينهما.

ومن هنا كان تخطى كل من الدولتين التعامل مع الحكام.. والبحث عن قاعدة بين الجماهير.

واشتد الصراع من جديد على هذه النقطة إضافة للصراع على السيطرة على الحكومات فى طهران، وأيضا الصراع على المصالح الاقتصادية.

وفى محاولة للتخفيف من هذا الصراع وحتى تتمكن كل من الدولتين من التهام أكبر قدر من «التورتة الإيرانية»، جرت مفاوضات سرية بينهما طويلة وصعبة.

وفى النهاية وقعتا اتفاقية عام ١٩٠٧.. أعلنتها كل من روسيا وانجلترا.. وتم فى هذه الاتفاقية تقسيم إيران إلى ثلاثة أجزاء: منطقة نفوذ روسية «كبيرة فى الشمال ومنطقة نفوذ بريطانية صغيرة فى الجنوب، ومنطقة «محايدة» تشمل طهران فى الوسط.

وأنهت هذه الاتفاقية صراع المصالح الاقتصادية وتفرغت كل من الدولتين للعمل السياسى على الساحة الإيرانية.. وسط الجماهير.

واجتذبت كل منهما من استطاعت من الإيرانيين وشجعت ما أرادت من أفكار، وماجت إيران بتيارات وعقائد سياسية مختلفة بدعم وتشجيع ومساندة، متأثرة بما يرد إليها من أفكار سياسية من الخارج وبالاتجاهات التحريرية السياسية والاجتماعية الداخلية والمتأثرة فى أكثر اتجاهاتها بما كان يجرى فى تركيا فى هذا الوقت، حيث كان «كمال أتاتورك» يسلخ بلاده من تخلف القرون الوسطى ليلحقها بالحضارة الحديثة، فكان هناك حركة «الفرس الصغار» وكان هناك حركة «أنصار الدستور».

وسقطت أسرة قاجار

وكانت هذه التيارات السياسية تسعى إلى تغيير أكثر ديمقراطية ودستورية، والتخلص من النفوذ الأجنبى الذى زاد فى البلاد.

وقد أدت هذه التيارات السياسية المعارضة إلى أن تقوم الحكومات المختلفة بتدعيم فرقة القوقاز العسكرية لمساندة الحكومة والشاه، حتى وصلت هذه الفرقة وقائدها رضا خان إلى ما وصلت إليه من التحكم فى كل مقاليد الأمور فى إيران.

ومع ذلك اضطر الشاه سنة ١٩٠٦ تحت ضغط المطالبين بالدستور إلى إنشاء الجمعية الوطنية.

وهى نفسها التى أسقطت حكم آل قاجار ١٩٢٥.

الاتجاه للجمهورية.. ولكن

وكان رضا خان فى ذلك الوقت رئيسًا للوزراء وأقوى رجل على الساحة السياسية، وبإسقاط الحكم الملكى صار كرسى الحكم خاليًا واختار رضا خان النظام الجمهورى كشكل جديد للحكم فى إيران، متأثرًا بإعلان مصطفى كمال أتاتورك هذا النظام فى تركيا.

ولكن للعجب الشديد أن هذا الأمر لقى مقاومة عنيفة من رجال الدين الملالى آيات الله، الذين كانوا السند الرئيس للإقطاع والنظام الملكى الحاكم.

وعقد الأئمة اجتماعًا «مقدسًا».. فى مدينة «قم» المقدسة قرروا فيه أن «يستمر» النظام الملكى بكل تقاليده وان يبقى الوضع كما هو عليه، دون أى تغيير.

وأبلغوا الرجل القوى فى طهران رضا خان أنهم يعارضون أية محاولة لإقامة الجمهورية.

ولما كانت أفكار جماهير الشعب وعواطفها جميعا فى أيدى رجال الدين، منذ هذا الوقت وللآن والرجل لايريد أن يفتح على نفسه جبهة داخلية للمتاعب رجع عن فكرته فى إقامة الجمهورية.

وهكذا أعلن رضا خان.. ملكًا جديدًا شاهًا جديدًا.. رضا شاه فى ديسمبر من عام ١٩٢٥.

فماذا استطاع أن يفعل فى تركة آل قاجار المثقلة.

إصلاحات.. ولكن

اتجه رضا شاه مباشرة إلى التعليم لرفع مستوى الشعب، فهو فى نفس الوقت فى رأيه، أساس كل تقدم فى كل النواحى الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية أيضا.

فكان يرى فى التعليم قوة سياسية تدعم حكمه، وذلك بإضعاف سيطرة رجال الدين على الشعب، فقد كان يؤمن برأى يقوله دائما، «وهو أن قوة رجال الدين لاتكمن فى علمهم، ولكن فى جهل الشعب».

واتجه فى نفس الوقت وبنفس القوة الدافعة إلى دعم الحكومة المركزية اقتصاديًا بالسيطرة العسكرية على إقليم «خوزستان» الغنى بالبترول.

ودعم بشدة سلطة الحكومة المركزية فى طهران، وبسط سلطانها ونشره على أنحاء إيران، كما دعم الجيش الإمبراطورى وقام بتحديثه.

ولم تكن هذه الإصلاحات قد أخذت شكلها الكامل، ولا فرصتها الحرة فى الإنجاز، كما أن ما تم منها لم يكن قد أدى إلى نتائج واضحة بعد، عندما أعاقت الحرب العالمية الثانية كل شىء.

تركة.. أكثر ثقلا

ودخلت القوات المتحالفة إيران، وخلعت الشاه الأب رضا شاه، ليعتلى العرش ابنه ولى العهد محمد رضا شاه.

ليرث نفس التركة التى ورثها أبوه عن آل قاجار اللهم إلا القليل منها الذى نالته يد الإصلاح ويرث مضافا إليها الاحتلال الأجنبى لبلاده الذى كان هو وحده أكثر ثقلاً من كل ما تقدم.

رضا شاه.. والحرب

كان رضا شاه الملك الأب يدرك أن طبيعة موقع بلاده الجغرافى فى نقطة التقاء قارتى أوروبا وآسيا، لابد وأن يجعلها تحترق بلهيب الحرب بشكل أو آخر.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى كانت فى ذهنه تجربة الحرب

العالمية الأولى، وأن كثيرًا من البلاد التى أعلنت الحياد طالتها نيران الحرب ولم ينفعها حيادها، ومنها إيران التى كانت أرضها مسرحًا لمعارك فى الحرب التى لا ناقة لها فيها ولاجمل.

وكان الإمبراطور العسكرى المتسلط بطبعه يميل إلى ألمانيا ا لنازية عاطفيا.

وكان الطابع الألمانى فى البناء والاقتصاد مشاهدًا بسهولة فى المدن الإيرانية الرئيسية.

بل إن الشاه استخدم الخبراء العسكريين الألمان لتدريب جيشه على نظم الحرب والسلاح الألمانى.

والأهم من هذا كله أنه كان يؤمن بأنه لايمكن لإيران أن تقف على الحياد فى هذه الحرب الطاحنة، وأن عليها أن تأخذ جانب أحد طرفى الصراع، وأنه إذا كان الأمر كذلك فليكن هذا الجانب هو ألمانيا.

وكلما اشتدت الحرب ازداد الموقف الإيرانى تعقيدًا.

فمن جانب كانت انجلترا وفرنسا تنظران إلى موقف الشاه بكثير من الشك وعدم الثقة، خاصة بعد أن فتح حدود بلاده للجنود الألمان، تحملهم قطارات السكك الحديدية الإيرانية، على أنهم مجرد سائحين ألمان جاءوا إلى بلاده للسياحة.

ومن الجانب الآخر لم تكن روسيا جارته القوية تثق فيه هى الأخرى.

كل ذلك بالرغم من أن الشاه رضا بهلوى كان يعلن فى كل مناسبة.. بل وبغير مناسبة ـ أن بلاده مازالت على الحياد، وألمانيا هى الأخرى تؤيده فيما يعلن.

ولكن ذلك لم يمنع كلا من إنجلترا وروسيا من التهديد لإيران كل يوم.. باتخاذ ما تراه كل منهما من إجراءات مناسبة ضد كل احتمال.

اختلاف الموازين

وفى هذه الأثناء سقطت فرنسا فى يد القوات الهتلرية النازية التى اجتاحتها فى أيام قلائل، مما يوحى بأن هذه القوات لها قدرات وإمكانيات غير محدودة.

وقاس الرجل القابض على عرش إيران: المسألة كلها بالموازين العسكرية، ولم يضع فى اعتباره أى عنصر سياسى.

لقد كان يقول عن نفسه دائما إنه رجل عسكرى وليس رجل سياسة، وللأسف أثبت هذه المقولة فى هذا الوقت العصيب الذى كان يحتاج فعلاً إلى رجل سياسة.

وزاد الوجود الألمانى فى كل نواحى الحياة الإيرانية وبشكل علنى وملفت للنظر.

الاحتلال

وهاجمت القوات النازية روسيا بضراوة وكان على بقية الحلفاء أن يقفوا فى صفها ودعمها.

كان أمام الحلفاء أحد بديلين لنقل المعونات العسكرية والمدنية إلى روسيا، إما تركيا وإما إيران، وبالطبع كان الخيار هو إيران.. وبحلول أغسطس ١٩٤١ هاجمت القوات المتحالفة إيران.

هاجمتها القوات البريطانية على محورين فى وقت واحد تقدمت قوات من الخليج، واحتلت «عبدان» والمناطق المحيطة بها، وتقدمت قوات أخرى

لتدخل إيران من جهة العراق.

وفى نفس الوقت طوقت القوات الروسية إيران من الشرق، حيث الحدود بينهما تمتد على مدى ١٨٠٠ كيلو متر.

وبعد أيام قلائل من المواجهة العسكرية مع قوات الحلفاء، كانت القوات الإيرانية قد فقدت جميع أسلحتها، كما تم إغراق جميع القطع البحرية الإيرانية وأقال رضا شاه الحكومة وجاء برئيس وزراء جديد عقد صلحا مع الإنجليز، ثم أجبر الشاه على التنازل ثم الرحيل تاركا ابنه الغض، ليواجه الكوارث جميعها دفعة واحدة.

وداخل منهار

وما إن حل عام ١٩٤٢ حتى كانت إيران كلها محتلة بالكامل، وانتقلت سلطات الحكم بشكل فعلى كامل إلى الحلفاء من غربيين وشرقيين.

وكان المواطن العادى فى طهران العاصمة مجرد كائن، وإن كان بشرا فمن درجة دنيا، وكان مُعرضًا لأن يكون هناك جندى أجنبى يعترض طريقه وهو سائر على أحد الأرصفة، ويصيح فيه آمرا أن يترك له الرصيف، ولم يكن أمام المواطن الإيرانى إلا أن يطيع.

عملية إذلال كاملة على المستويين الحكومى والشعبى منسقة منظمة ولم يكن هذا كل شىء، بل الأدهى والأمر هو القوت اليومى للناس والذى ارتفعت أسعاره إلى ٤٠٠ فى المائة؛ حتى بات الناس جوعى وصارت المواد الغذائية الرئيسية كالأرز والسكر بالبطاقات.

ولكنه فى نفس العام توصلت إيران إلى عقد اتفاقية مع بريطانيا وروسيا تنص على مغادرة جميع القوات الخاصة بهاتين الدولتين للأراضى الإيرانية، بعد ستة أشهر من انتهاء الحرب وسميت بمعاهدة التحالف الروسى البريطانى الإيرانى.

..وفوضى

ولم يكن هذا كل البلاء، بل انتشرت الفوضى فى كل أنحاء إيران، فى كل نواحى الحياة.

فعلى مستوى الحكم كان الشاه يعين كل شهر رئيسًا جديدا للوزراء؛ لعجز كل منهم عن القيام بمهامه وسط هذا الخضم الهائل من الفوضى والأهواء المتضاربة، والصراع بين القوى المحتلة ومتطلبات المواطنين.

وانتشر الإرهاب السياسى والاغتيالات وجرى اغتيال عدد من السياسيين والصحفيين، وانتشرت المذاهب السياسية المختلفة؛ ليتطاحن بسببها الإيرانيون.

وردة للوراء

وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل صاحب كل ذلك رِدة قوية للخلف.

كان الشاه الوالد رضا بهلوى قد نزع سلاح رجال القبائل وأخضعهم للسلطة المركزية فى طهران.

فأعاد الإنجليز بعث القوة فيهم من جديد، وأغدقوا عليهم السلاح، والمواد التموينية.

وكان الشاه المعزول قد أضعف كثيرًا من سلطات الزعماء الدينيين، فأعاد الإنجليز تنشيط الجماعات الدينية باعتبار أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة المد الشيوعى الذى اجتاح إيران.

واستنزاف

وكانت كل نواحى الحياة الإيرانية تحت رحمة قوات الاحتلال التى سخرت كل شىء.. واستنزفت كل مقدرات إيران؛ لتخدم العمليات

العسكرية، وخطوط التموين العسكرى.

وسخرت لهذا الأمر كل الطرق وكل المواصلات العادية وكل السكك الحديدة، وعلى مدى أربع وعشرين ساعة كان على الإيرانيين أن يحملوا متاعهم وطعامهم على ظهورهم أو أن يقفوا لساعات طويلة ريثما تمر قوافل الحلفاء فى الطريق إلى روسيا.

وفى الموانىء ومحطات السكك الحديدية، كانت الأفضلية والأولية للمعدات العسكرية، والشحنات الغذائية للحلفاء والمقاتلين، وعلى كل ما هو إيرانى عليه أن ينتظر.

كان الناس يقفون صفوفًا بالساعات، حتى يحصلوا على الخبز أو شىء من محلات «البقالة» لينالوا الفتات بعد أن حول الروس كل إنتاج المناطق الشمالية لاستخدامهم الخاص.

وعلى المستوى الفردى كان السفر ممنوعًا إلا بتصريح خاص ليتركوا الفرصة للقوات المتحالفة، ولا يأكلون تقريبًا لتنعم القوات المتحالفة بكل الإنتاج المحلى والوارد من الخارج.

وزاد الطين بلة هؤلاء البولنديون الذين تدافعوا بالآلاف على إيران عبر الأراضى الروسية هربًا من النازى والحرب.

ومن المضحك والمبكى معًا أن الشوارع فى طول إيران وعرضها امتلأت بالملصقات التى تقول للشعب الإيرانى: إن الحلفاء.. من أجل الدفاع عن حريته.

مؤتمرات طهران

وفجأة فى أحد أيام خريف ١٩٤٣ توقفت الحياة تمامًا فى طهران، توقفت الإذاعة عن الإرسال، وقالت البيانات الحكومية: إنه عطل فنى، ثم

توقف.. بلا مبرر المكتب الرئيسى للتلغراف.

وتم تحويل جميع وسائل المواصلات التى فى طريقها إلى طهران إلى طرق أخرى بعيدة عنها.

وامتلأت الشوارع فى طهران بالآلاف من الجنود الروس والإنجليز بكامل أسلحتهم.

وبسرعة سرت الإشاعات.

قالوا: إن القوات المتحالفة تبحث عن جواسيس ألمان نزلوا إيران، أو من الإيرانيين أنفسهم.

وقالوا: إن الألمان قد هبطوا فى إيران.

وقالوا: إن الشاه المخلوع رضا بهلوى عاد من منفاه ليهاجم إيران وأكد آخرون أنه سيكون فى طهران خلال أيام، بل صدرت سريعًا طبعة خاصة من جريدة موثوق بها تحمل هذا التأكيد.

ولم يكن يعرف الحقيقة فى طهران، بل وفى إيران كلها إلا رجال قلائل، منهم الشاه محمد رضا بهلوى.

وكان كل ما اتخذ من إجراءات هو إعداد لاجتماع أقطاب الحرب المتحالفين.. الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت، والدكتاتور الروسى جوزيف ستالين، ورئيس الوزراء البريطانى ونستون تشرشل.

وكان الموضوع هو بحث آخر ما وصلت إليه العمليات الحربية من نتائج، ومراجعة أفضل السبل لمواجهة أطماع هتلر، والقضاء على الزحف الألمانى الكاسح.

علاقات صداقة

وانتهز الشاه محمد رضا بهلوى فرصة وجود أقطاب العالم «الحر» فى طهران ليحصل على ما يحدد وضع بلاده، ومستقبلها السياسى بعد الحرب.

وزار الشاه الرئيس روزفلت، حيث كان يقيم فى السفارة الروسية فى طهران.

لقد أقنعه الروس بأن هناك مؤامرة لاغتياله دبرها النازيون، وأن عليه أن يترك السفارة الأمريكية، حيث أقام فى البداية وأن حياته ستكون فى مأمن بينهم فى السفارة الروسية شديدة الحراسة إذا هو جاء ليقيم فيها.. ففعل.

وفى السفارة الروسية زار الشاه ستالين بالطبع.

ورد ستالين الزيارة للشاه مرات ومرات وفى إحداها، وفى عملية لاستعراض القوة غير مسبوقة وغير متوقعة جاء ستالين إلى الشاه بمفرده دون حراسة بالمرة، بل وتجول يومها فى شوارع طهران لمدة ٣ ساعات.. كل ذلك ما شيًا على قدميه.

وكان تشرشل هو الوحيد الذى لم يسع للقاء الشاه، ولا إبداء نوع من الود نحوه.

وغادر روزفلت هو الآخر طهران، دون أن يرد الزيارة، وإن كان بعدها بعث بخطاب رقيق للشاه شاكرًا للقاء.. ومعتذرًا عن «التمتع بجمال طهران» لضيق الوقت.

وأحاديث صداقة

وفى زيارة الشاه للرئيس الأمريكى أكد له روزفلت تأييد أميركا الكامل له.

كما كانت أحاديث ستالين دائمًا مليئة بالود والصداقة، بل وقدم عروضًا سخية لتزويد إيران بما تحتاجه من أسلحة وعتاد حربى.

بيـــان

استغرق مؤتمر طهران أربعة أيام وصدر عنه بيان فى أول ديسمبر عام ١٩٤٣.

وفيما يتعلق بإيران جاء فى البيان: «إن الحلفاء وهم يقدرون المساهمات والتضحيات التى قدمتها إيران للحلفاء فى الحرب ضد العدو المشترك، ويدركون أن الحرب سببت لإيران متاعب اقتصادية؛ لهذا فإن الحلفاء سيقدمون لإيران ما يرونه ضروريًا من معونات اقتصادية».

«إن الحلفاء يؤيدون حكومة إيران فى سعيها للحفاظ على استقلالها وسيادتها ووحدة أراضيها».

وأيًا كانت نتائج مؤتمر طهران المعلنة فهناك نتيجة مهمة لم يعلن عنها، ولكن جرى تنفيذها وسريعًا وهى أنه لابد أن يكون لأمريكا وجود فى إيران، وقد حدث.

■ ■ ■

الزواج الأسطورى



■■ وصار الناس يسمعون أغرب القصص.. وكيف أن الأميرة المدللة.. المهذبة.. الرقيقة، يضربها زوجها بالكرباج وإنها موضع إهانة وإذلال من جميع من فى القصر.. ولكن ماذا كانت تريد الملكة؟ وهل حققت أهدافها؟.

الزواج الأسطورى

عندما فرغ إمبراطور إيران.. رضا شاه من تثبيت دعائم ملكه كرس جهوده لتربية نجله الأمير محمد رضا ولى عهده تربية عسكرية، ملكية خاصة، حتى يؤهله لوراثة عرش الطاووس.

وكان يرى أن تكون هذه الزيجة لابد وأن تكون من أميرة ملكية وأن توثق علاقة بلاده بدولة أخرى.

واستقر الرأى على الأميرة فوزية.. شقيقة الملك فاروق، أجمل فتيات الأسرة العلوية وربما أجمل بنات الدنيا فى هذا الوقت.

اتصالات دبلوماسية

ومن الغريب أن الاتصالات الأولى فى هذا الموضوع الشخصى تمامًا بدأت باتصالات دبلوماسية رسمية.

اتصل سفير إيران فى القاهرة بوزير الخارجية المصرى، حيث طلب نقل الرغبة الإمبراطورية الإيرانية برغبة الشاه رضا بهلوى أن تكون الأميرة المصرية عروسًا لابنه وولى عهده محمد رضا إلى الملك فاروق.

وموافقـــة

ووافق الملك فاروق لغرض ما فى نفسه على هذا الزواج على الفور، دون أن يعرف رأى الأميرة ودون أن يخطر أمه الملكة نازلى المسيطرة على كل الأمور فى ذلك الوقت وأبلغت الموافقة إلى السفارة الإيرانية، التى أبرقت بها للإمبراطور.

وكان الطلب الوحيد الذى أبدته الأميرة فوزية عندما علمت هو أن تطلع على بعض الصور والبيانات عن الأمير، قبل أن تبدى رأيها. ووافقت بعد أن اطلعت عليها.

وثارت الملكة نازلى فى البداية. لعدم استطلاع رأيها، وأبدت موافقة ضمنية على أن يكون هناك «تمهل» فى إتمام الزواج.

الموافقة الفورية.. لماذا؟

أما عن سبب موافقة الملك فاروق الفورية على الطلب الإيرانى فكان سببها أنه رأى فى هذه الزيجة خطوة مهمة، وإيجابية فى تحقيق حلمه بالخلافة الإسلامية.

أى أن يكون خليفة للمسلين فى العالم أجمع وبالطبع فإن أصهاره.. على العرش الإيرانى، سيكونون أول موافق ومعضد لآماله.

مفاوضـــات

وبوصول رد السفارة بالموافقة الملكية جرت مفاوضات رسمية اتفق خلالها على إعلان الخطوبة رسميًا، بعد وصول بعثة إيرانية رسمية إلى القاهرة تضع جميع ترتيبات الزواج.

خطبـــة

وفى يوليو ١٩٣٨ أعلنت الخطبة رسميًا فى البلاطين الملكيين فى كل من القاهرة وطهران.

وأن الأمير الإيرانى سيتوجه فى القريب إلى مصر لإتمام الزواج.

وأقيمت الاحتفالات هنا وهناك بهذه المناسبة السعيدة.

الاستعداد

كان أول ما طلبته الأميرة فوزية بعد ذلك كتبًا عن كل ما يتعلق بإيران.

بكل اللغات التى تجيدها. وأيضا مدرس لتعليمها اللغة الإيرانية.

واصطحبت الملكة نازلى بناتها فى رحلة الصيف إلى أوروبا للاصطياف وشراء ما يلزم من ملابس للخطبة والقران.

المفاجأة.. عبدالوهاب

وعلى الباخرة التى أقلت الركب الملكى كانت هناك مفاجأة.

فالصدفة الغريبة كان الموسيقار محمد عبدالوهاب بين ركاب الباخرة فى طريقه إلى أوروبا أيضا.

وكان عبدالوهاب قد غنى فى إحدى الحفلات التى أقيمت بمناسبة الخطبة قصيدة «لمهيار الديلمى» انتقاها بمهارة.

وأبى كسرى على إيوانه

ليس فى الناس أب مثل أبى

قد ضمنت المجد من أطرافه

سؤدد الفرس ودين العرب

وكانت الملكة نازلى قد سمعته وقتها، فطلبت منه على الباخرة أن يعيدها وطربت بها كثيرًا وازداد إعجابها بها بعد أن ترجموا لها معانيها.

وعلى الفور طلبت الملكة نازلى إيقاظ الأميرة فوزية التى اعتادت أن تكون فى فراشها فى العاشرة مساء.

وأعاد عبدالوهاب القصيدة فى حضور الأميرة، وفى هذه المرة تولت الملكة بنفسها شرح معانى القصيدة التى تشيد بالفرس للأميرة المقبلة على الزواج من وريث عرش كسرى.

وبعد الغناء كانت جلسة للكلام عن الموسيقى الإيرانية، فقد كان من السهل على الفنان المرهف الحس أن يدرك اهتمام الأميرة بالموضوع، وأنها تريد الإلمام بكل ما يتعلق بالبلد الذى توقعت أن تقضى فيه بقية عمرها.

وفى نهاية الجلسة طلبت الأميرة من عبدالوهاب «اسطوانة» مسجلة

للأغنية ولما لم تكن «طبعت» بعد فقد وعدها بواحدة.

وهنا طلبت منه الأميرة ـ بأدبها المعروف ـ أن يكتب لها أبيات القصيدة لتحفظها.

ترتيبات.. وأزمة

عادت الرحلة الملكية قبل حضور الأمير بهلوى إلى مصر، والتى كان قد تحدد لها مارس ١٩٣٩.

وأصرت الملكة نازلى أن يعرض عليها البرنامج التفصيلى لحفلات القران فى القاهرة وحفل الزفاف فى إيران.

وكانت أزمة فبرنامج الحفل وضعه الشاه الأب بنفسه وراعى فيه ما كان هناك من نُذر الحرب العالمية الثانية التى كانت قد لاحت فى الأفق..

فكان البرنامج بسيطا فى مظاهره، وأيضا تكاليفه.

ولكن الملكة نازلى طلبت أن تقام احتفالات الزفاف فى إيران على مدى أسبوع كام، يتخللها افتتاح دار الأوبرا الإيرانية الجديدة.

ومآدب يومية فاخرة للمدعوين، وأن تطلى واجهات المحال فى الشوارع التى يخترقها موكب العروسين.

وأن يخصص قصر خاص لإقامة ابنتها مع زوجها ولى العهد.

ولم يكن فى استطاعة سفير إيران فى مصر إلا أن ينقل هذه الرغبات الملكية إلى الإمبراطور الوالد الذى وافق عليها بعد تردد وامتعاض شديد، ربما أقل من الامتعاض الذى أبدته الأميرة فوزية نفسها فى مواجهة أمها.

الأمير فى القاهرة

ووفقًا للبرنامج المعد وصل الأمير محمد رضا بهلوى إلى القاهرة فى أول مارس ١٩٣٩.

كان شابًا نحيلاً نحيف القوام.. جادا.. مقطب الجبين دائمًا بادى الخشونة، وكان يرتدى بذة «بدلة» عسكرية من اللون «الكاكى» الداكن ذات رقبة عالية.

واستُقبل الأمير بحفاوة منقطعة النظير، استقبله الشعب الذى كان مازال محبًا لمليكه وأميرته استقبالاً حافلاً.

واستقبله الملك فاروق فى أبهى قاعات قصر عابدين «صالون قناة السويس».

اللقاء الأول

وبعد الترحيب بالأمير اصطحبه الملك فاروق إلى «الحرملك» بين صفين من حرس الشرف الحريمى من الوصيفات، حيث تقيم الملكة نازلى والأميرة فوزية.

وعندما التقت عيونهما فقد الأمير توازنه للحظة، وتلعثم فى الكلام، حتى أنه ألقى التحية على الحاضرين بالفارسية، ناسيًا أنها غريبة عليهم.

ثم استرد نفسه وتذكر ـ على قدر ما استطاع ـ وهو يوجه باللغة الفرنسية تلك الكلمات التى كان قد أعدها لهذه المناسبة.

وفى المقابل خفضت الأميرة رأسها، وتلعثمت فى الرد عليه وقد ضاعت من ذاكرتها تلك الكلمات الفارسة القليلة التى كانت حفظتها لتحيى بها الأمير.

والثانـــى..

وفى مساء نفس اليوم أُقيمت حفلة ملكية عائلية حضرها أفراد الأسرة المالكة للتعارف والتحية.

وجلست الأميرة بجوار العريس الأمير مع المدعوين قليلاً.. ثم انسحبا إلى شرفة القاعة.

وهناك اكتشف كل منهما أن الآخر قد أعد له بعض الكلمات بلغته القومية تذكر هو اللغة العربية، وردت عليه بالفارسية..

وأزالت تلك الحظات كل مسافات البعد الزمانى، والمكانى والقومى التى كانت تفصل بينهما.

وعادا إلى القاعة بقليل من الارتباك، وكثير من التفاهم.

مشكلة دستورية

وقبل أن تبدأ مراسم العقد أُثيرت مشكلة تتعلق بالدستور الإيرانى الذى يحول دون أن تجلس فوزية على العرش الإيرانى، باعتبارها مصرية، وتحول أيضا دون أن ترث ذريتها هذا العرش.

وسارع الإمبراطور رضا بهلوى باستصدار قانون من البرلمان الإيرانى بأن «فوزية» إيرانية وبالتالى فأولادها إيرانيون، ولايحول بينهم وبين العرش شىء.

القـران

وفى ٢١ مارس ١٩٣٩ تولى عقد القران الشيخ محمد مصطفى المراغى الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

واستمر الاحتفال بعقد القران بعذ ذلك لمدة خمسة أسابيع فى حفلات

اسطورية ثم بدأ الاستعداد للزفاف.

وأصرت الملكة نازلى على أن يكون كل شيء تحت إشرافها الشخصى المباشر، ابتداءً من أسماء المدعوين إلى من يقوم بالغناء، بل وكلمات الأغانى ذاتها.

وفى الحقيقة كان إعدادًا فائق الدقة، كامل النجاح.

الزفـاف

بدأ المدعوون فى التوافد على قصر القبة، لتستقبلهم وصيفات الملكة كل إلى مكانه فى هدوء ونظام ملكى.

ثم عزفت الموسيقى السلامين الامبراطورى الإيرانى، والملكى المصرى إيذانا بقدوم الملك فاروق والأمير محمد رضا بهلوى.

وبدأت الزفة وغنت أم كلثوم ورقصت بديعة مصابنى، ثم قام الملك فاروق والملكتان فريدة ونازلى إلى البوفيه، وتبعهم المدعوون ثم تفرق الجميع بعد ذلك فى أروقة القصر.

واستقبل العروسان زورقًا يطوف بهما بحيرة حديقة القصر.. وتبعهما زورق آخر به بعض الموسيقيين فى مشهد من مشاهد ألف ليلة وليلة.

واستمرت هذه الاحتفالات الفاخرة حتى يوم الرحيل.

الرحيـل

على أن هذه الاحتفالات لم تنقطع بالرحيل، بل انتقلت إلى مكان آخر فقط على الباخرة «محمد على» التى أبحرت من الإسكندرية فى أول شهر إبريل ١٩٣٩ تقل ركب الزفاف الملكى.

استقبال ملكى

وفى إيران كان فى استقبال ركب الزفاف الملكى ركب زفاف ملكى آخر، على رأسه الإمبراطور نفسه رضا بهلوى والأسرة المالكة كلها.

صدام الحموات

ودون أن تراعى الملكة نازلى موقعها كملكة أم ملك أم الأميرة العروس، تركت الحفل والاستقبالات الرائعة بقدومهم وإتجهت إلى حيث الهدايا التى أرسلت للترحيب بهم والتى تحملها ٣ سيارات.

وبدأت تستفسر عن كل شىء منها بإسهاب، ثم أمرت ـ وسط دهشة الجميع ـ بأن تنقل هذه الهدايا إلى جناحها هى الخاص فى قصر الضيافة على ألا يفتحها أحد غيرها.

وهنا تدخلت الإمبراطورة تاج الملوك أم العريس الأمير، لتؤكد للملكة نازلى أن الهدايا إنما قدمت للعريس وليس للعروس، وأشاحت الملكة نازلى عنها بوجهها فاضطرت الأخيرة أن تتصرف حانقة.

وفى المساء تكرر صدام الحموات من جديد، عندما اعترضت الملكة نازلى على تخصيص خادمة واحدة لجناح العروسين، وأصرت على أن يكون عدد الخدم سبعة.

وكانت أزمة جديدة..

وعندما تدخلت الأميرة العروس محاولة إثناء أمها عن تشددها، نهرتها أمام الجميع.

.. وأزمة جديدة

وفى اليوم التالى لوصول العروسين.. بدأت احتفالات الزفاف للمرة الثانية فى الجانب الإيرانى.

كانت إيران كلها غارقة فى الزينات والأضواء، والقصر الملكى يتلألأ.. مرة أخرى.. احتفال من احتفالات ألف ليلة وليلة الأسطورية فى القصر الإمبراطورى «جولستان».

وحضر الحفل أكثر من ألف مدعو، كان فى استقبالهم عند الباب الداخلى للقصر الإمبراطور رضا بهلوى والإمبراطورة تاج الملوك والأمير محمد رضا ولى العهد وعروسه الأميرة فوزية وأمها الملكة نازلى.

وبعد استقبال الضيوف دلف الإمبراطور إلى الداخل برهة خرج بعدها بدقائق كبير الأمناء يحمل صولجان الإمبراطور إيذانا بحضوره وبدء الحفل، ثم دخل الإمبراطور ثانية إلى القاعة يتقدم العروسين فى مشهد خيالى لا يتكرر كثيرا.

ومرة أخرى يتكرر التصرف غير اللائق من الملكة نازلى فتترك الجميع، وتتجه إلى المائدة التى تحمل الهدايا.. وتفحص البطاقات التى تحملها لتجد بعضها موجهًا للعريس.. وبعضها الآخر موجه للعروس.. فاستدعت أحد موظفى التشريفات ليفصل هذه عن تلك.

وفى هذه اللحظة اتجه إليها الإمبراطور نفسه ليجذبها من ذراعها؛ ليعيدها إلى مكانها بين المدعوين، وعندما نظرت إليه كان الشرر المتطاير من عينيه كافيا لإقناعها بالعودة فورًا، ودون أن تنطق بكلمة واحدة.

حفلة.. وأزمة

فى اليوم التالى للحفل الإمبراطورى أقامت الملكة نازلى فى قصر الضيافة حفلاً آخر كبيرًا، وفوجئ بها الجميع تراقص شابًا أجنبيًا.

وغضب الإمبراطور وطلب من زوجته أن توجه نظر الملكة نازلى إلى مخالفة ذلك لتقاليد العائلات الإسلامية.

ولكن الملكة نازلى فقط لم تأبه بتوجيهات الإمبراطورة، بل ردت عليها بمنتهى الوقاحة.. هازئة بالعقليات الرجعية القديمة المتزمتة، قائلة: «إن الفلاحين فى مصر مازالوا ينظرون إلى الأمور بمثل هذه الرجعية».

وكان الرد قاسيًا.. فانسحبت الإمبراطورة غاضبة، لتنقل لزوجها هذه الإهانة وعلى مسمع العروسين.

وظهر الغضب على الإمبراطور وكظم الأمير غيظه من أجل عروسه.

ولكن الأميرة العروس انفجرت باكية بشدة حتى إن الإمبراطور تجاوز عن غضبه، وأسرع إليها ليطيب خاطرها، ويسرى عنها، وطلب من ابنته أن تصحبها فى جولة فى طهران حتى يذهب عنها ما هى فيه.

تحقير متعمد

وبات من الواضح أن الملكة نازلى تتعمد «إهانة» الإمبراطورة تاج الملوك، التى حاولت مرارا أن تتحامل على نفسها لأمرين أولهما أن الملكة نازلى ضيفة على البلاط الإيرانى والثانى من أجل خاطر العروس.. اللطيفة فوزية، دمثة الخلق التى استطاعت ببساطة وسرعة، الدخول إلى شغاف قلب حماتها وحماها.

ولكن تصرفات نازلى كانت فوق الاحتمال متعمدة بمناسبة وبغير

مناسبة الإساءة إلى الإمبراطورة ومعاملتها «بعجرفة» مقصودة مفتعلة الأزمات الواحدة تلو الأخرى.

والسفير يتدخل

ومن بين مظاهر الترحيب.. اصطحبت الإمبراطورة تاج الملوك الملكة نازلى فى جولة لإطلاعها على معالم قصر جولستان الإمبراطورى.

وبالرغم من أن القصر تحفة معمارية تاريخية، حيث أقامه أحد ملوك أسرة قاجار عام ١٨٠٦ على مساحة تزيد على خمسة وعشرين فدانًا.. وبه من الردهات والأورقة ما يذهل، ويكاد يصبح متحفا.. أيضا لكثرة ما به من تحف ومقتنيات، بالرغم ذلك كان كل شىء موضع استهزاء وتحقير نازلى، وهو مالم تصبر عليه تاج الملوك..

بالرغم من تدخل الأميرة فوزية أكثر من مرة لتلطيف حدة التوتر، قائلة لحماتها: إنها لو سمعت عن هذا القصر ودون أنه تراه لظنت أن ما تسمعه هو من وحى الخيال والأساطير.. وهى مقولة حق فعلاً.

وزاد الطين بلة أن قدم الملكة نازلى زلت فى أحد أورقة القصر.. فترجمت آلامها إلى سباب وشتائم مقذعة بالعربية التى لم تفهمها تاج الملوك طبعًا، وانشغلت عنها بمحاولة تخفيف آلام الضيفة الزائرة.

ولكنه كان من بين أفراد الحاشية من نساء القصر من تفهم العربية، فأفهمت الإمبراطورة ما لم تفهم مما قالته نازلى.

ولم تستطع الإمبراطورة تاج الملوك أن تكتم غيظها أكثر من ذلك ولم تجد الأميرة فوزية أمامها إلا أن تستدعى السفير المصرى فى طهران إلى القصر فورا.. لعله يستطيع بدبلوماسيته أن يصلح ما أفسدته الملكة الأم.

وعندما وصل السفير كان الإمبراطور هو الآخر قد أصبح طرفًا فى الأزمة بعد أن أُحيط علمًا بما حدث وكان ثائرا تماما، ولكن السفير لم يترك المكان إلا بعد أن هدأت العاصفة.

جفــاء

ورغم أن الأمور هدأت إلا أن النار ظلت تحت الرماد فقد أصرت الإمبراطورة بعد ذلك أن تتفادى الملكة نازلى تمامًا وألا تتعامل معها.. أو تتبادل معها الحديث.. طوال فترة بقائها فى طهران.

وطــرد

وأدت تصرفات نازلى المتجاوزة الغريبة إلى نوع من الغليان والثورة المكظومة التى شملت جميع من فى القصر الإمبراطورى إلا أن الاحتفالات الشعبية استمرت، وعلى نفس النظام الإسطورى.

وطبقا للتقاليد الإيرانية فى الاحتفالات بمناسبات الزفاف.. كان يخصص جانب من مكان الحفل.. أو أحد الصالونات للمتمسكين بتقاليد الدين من المدعوين.. والذين لا يميلون إلى اللهو والشراب.. ثم يكون هناك جزء آخر للشباب.. به حوض ملىء بالنبيذ الفاخر.. وحوله توجد الموائد التى عليها أشهى المأكولات.

وعندما تصبح الساعة العاشرة مساء.. ينصرف الشيوخ والعقلاء.. ويخلو الجو لينطلق الشباب المرح.

وكانت الملكة نازلى تتعمد دائمًا ألا تذهب إلى هذه الاحتفالات إلا بعد العاشرة.

وفى إحدى هذه الأمسيات ظلت نازلى تشرب وتشرب، حتى فقدت

السيطرة على نفسها، ونسيت من وأين هى، وقامت ترقص على تصفيق الحاضرين.

وكانت فضيحة حقيقية ثار لها الإمبراطور، واستدعى الأمير ولى العهد وعروسه الأميرة فوزية والسفير المصرى فى طهران.

كانت الأميرة تعلم أن تجاوزات أمها قد فاقت كل حدود الاحتمال من الجميع، ولكنها المرة الأولى التى تسمع فيها.. أن إقامة الملكة نازلى فى إيران قد تجاوزت المدة المحددة للضيافة الرسمية وهو تعبير مهذب.. للطرد واستعان السفير المصرى بزوجته لتقنع الملكة نازلى بالرحيل ووافقت بعد جهد شاق، ولكنها قبل أن ترحل أصرت على إثارة المزيد من الأزمات.

أزمة الخدم

كان الأمير محمد رضا قد نزل وعروسه فى قصر «المرمر» الذى كان الإمبراطور يعده ليكون مقرًا للحكم، ولكنه لم ينته إلا وقت زفاف الأمير، فقرر الوالد فرحًا وحبًا أن يخصصه لإقامة ابنه.

وقبل أن تسافر أصرت الملكة نازلى على أن تقوم على خدمة ابنتها العروسة بعض الوصيفات المصريات، وكان هذا موضع اعتراض من الجميع بمن فيهم العروس فوزية، ولكنها أصرت، خاصة وقد أتت بمن تريد من القاهرة لهذا الغرض.

ووجد السفير بلباقته وكياسته حلاً وسطًا.. وهو أن يلحق هؤلاء.. بالسفارة المصرية فى طهران ليكونوا تحت طلب الأميرة.إذا ما أرادت.

وأزامة المجوهرات

وبدأت نازلى فى الرحيل وعندما وصلت أمتعتها لتوضع على الباخرة

«محمد على» التى كانت فى الانتظار.. صرخت مستدعية رئيس الحرس الذى جاء على الفور، لتعلن له أنها فقدت حقيبة مجوهراتها.

وذهب الرجل بنفسه ليبحث عنها ليجد أنها نسيتها فى إحدى قاعات القصر واحضرها لها، وبالرغم من أن الحقيبة لها مفتاح وحيد لايفارق الملكة نازلى شخصيًا، إلا أنها فتحت الحقيبة وعادت تصرخ من جديد: «مجوهراتى اختفت» وكانت الحقيبة فعلاً فارغة.

وبعد أن أثارت الأزمة.. تذكرت لو أنها نقلت المجوهرات إلى حقيبة أخرى.

وانتهت الأزمة، وابتلع الحاضرون لوداعها هذه الإهانة القاسية، وفى مقدمتهم الإمبراطور والإمبراطورة من أجل خاطر العروس المحبوبة.

وأخيرًا... رحلت

وعادت الملكة نازلى إلى القاهرة وقلبت كل القصص والمهازل والأزمات التى أثارتها إلى صالحها، وصورت الموقف للأسرة المالكة جميعًا، وفى مقدمتهم الملك فاروق على أن الموضع كان مأساة، وأن ابنتها أتعس إنسانة فى الوجود.

وصار هذا حديثًا مكررًا.. وفى كل مرة تضيف إليه الملكة.. ويضيف إليه الملك، حتى صار الناس، يسمعون أغرب القصص، وكيف أن الأميرة المدللة، المهذبة، الرقيقة، يضربها زوجها «بالكرباج» يوميًا وأنها موضع إهانة وإذلال من جميع من فى القصر الإيرانى.

خليفة المسلمين والأمل الخائب

على أن كل ما أثارته الملكة الأم لم يحرك شيئا داخل نفسية الملك فاروق الذى تجاوز عن كل شىء.. فى سبيل تحقيق هدفه الأكبر.. بأن يكون خليفة للمسلمين، كان المهم فى نظره هو مدى ما يحققه هذا الزواج لأغراضه هو الخاصة.

وفعلا أرسل للإمبراطور الفارسى من يحدثه فى شأن إعادة الخلافة الإسلامية، وضرورة ذلك وأن يكون مكانها مصر، والملك فاروق هو الخليفة، ولكن الإمبراطور ثار قائلا «إذا كان هناك من يصلح لهذه المهمة الصعبة فهو أنا.. ولا أعتقد أن فاروق يستطيع أن يكون خليفة للمسلمين وبلاده محتلة فعلاً من الإنجليز».

وكانت صدمة للملك فاروق.. ولكنه لم ييأس وعاود المحاولة مرة أخرى.

الملكة غير مرغوب فيها

وشعرت الأميرة العروس بأعراض الحمل وسمعت أمها بمرضها، فعرضت فى برقية من القصر بالقاهرة الإمبراطورى فى طهران أن تذهب إلى هناك لتكون بجانب ابنتها وكان الرد الإمبراطورى أن قدومها إلى طهران قد لا يتناسب مع أخطار الحرب، ثم أن الجميع يسهرون على راحة الأميرة، وهى أيضًا أصبحت فى صحة جيدة، وفهمت الملكة نازلى مضمون الرسالة وأنها شخص غير مرغوب فيه فى هذا المكان.

وساطة.. ووساطة

ولم تيأس الملكة نازلى، وأرسلت إلى حرم السفير المصرى فى طهران لتقوم بدور فى ذلك، وقابلت حرم السفير الإمبراطورة، وخرجت من المقابلة بقناعة كاملة بأن الإمبراطورة هى التى وراء منع الملكة نازلى من الحضور

إلى إيران.. وبعثها زوجها السفير إلى القاهرة لإقناع الملكة نازلى بالعدول عن فكرتها، ولكنها أصرت وخرجت من المقابلة متجهة إلى ابنها الملك فاروق.. وطالبته بمخاطبة الأمير محمد رضا بهلوى ليرسل الأميرة فوزية لتضع مولودها فى مصر.

وجاء الرد بأن الأطباء رفضوا تمامًا سفر الأميرة بالطائرة، والسفر فى البحر مغامرة غير مأمونة نظرًا لظروف الحرب.

وكانت رسالة الأمير محمد رضا رقيقة مهذبة، ولكنها حاسمة قاطعة..

وأزمة جديدة

وكان من المفروض أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد.. ولكن اقتراحًا سخيفًا من الملكة نازلى أدى إلى أزمة حادة بين الأسرتين الملكيتين.. اقترحت الملكة نازلى أن تحضر الأميرة فوزية إلى القاهرة وتقيم بالسفارة الإيرانية باعتبارها أرضًا إيرانية.

وضاق الأمير بالإلحاح غير العادى للملكة نازلى، فطلب من سفير إيران فى مصر أن يقابل وزير الخارجية المصرى ويبلغه أن الحديث عن ولادة الأميرة فوزية فى مصر، أو حتى مجرد حضورها إلى مصر، وأيضا ذهاب الملكة نازلى إلى طهران أصبح حديثًا غير مرغوب فيه من جانب الأسرة الإمبراطورية فى إيران.

واستفزت الملكة نازلى شعور جميع من بالقصر الملكى واستثارتهم وتوترت الأمور إلى حد الأزمة الحقيقية خاصة بعد أن شارك الملك فاروق أمه وبدأ يتصرف بجفاء نحو كل ما هو إيرانى.. جفاء حقيقى فعلى ولكنه غير مسجل رسميًا.

وردت إيران بجفاء مماثل حتى أنها تجاهلت الذكرى الثالثة لجلوس الملك فاروق على العرش.

إحدى بنات الإمبراطور

على أن الصورة الحقيقية كانت على العكس من ذلك تمامًا.

فقد انقضى شهر العسل الملكى كله فى احتفالات.

واطمأنت الأميرة العروس على وضعها فى القصر وصارت بالفعل موضع رعاية واهتمام الجميع، كأميرة من أميرات القصر بنات الإمبراطور.

بل والأكثر من ذلك أن الإمبراطور نفسه كان يدعوها لتشاركه بعض أعماله، خاصة حضور لقاءاته بالوزراء لتداول أمور الحكم، ويشركها فى كثير من الأمور العامة.

حمل وولادة

وحملت العروس وكان من الطبيعى أن تكون هناك أعراض مرضية.

وفى ديسمبر ١٩٤٠ رُزقت الأميرة وولى العهد بمولودتهما «شاهيناز».

وقامت الدنيا ولم تقعد.

مطلوب ذكر.. لا أنثى

دخلت عليها الأميرة أشرف توأم الشاه لتعنفها؛ لأنها ولدت بنتًا.. فى حين أن المطلوب ولد.. ولى عهد جديد؛ ليرث عرش الطاووس بعد وقت طال أو قصر.

وأُصيبت الأميرة «بحمى نفاس» بسبب سوء معاملة أهل القصر لها، وقيل إنها أصيبت بعقم، وأنها لن تلد مرة أخرى.

إمبراطورة.. ولكن

وقامت الحرب وتحسبًا للمواقف المحتملة قام الإمبراطور رضا بهلوى بتهجير الأسرة، بمن فيهم فوزية بعيدًا عن العاصمة.

ثم يدخل الحلفاء إيران.

ويخلعون الشاه رضا شاه عن العرش ويولون ولى عهده محمد رضا بهلوى، ليصير إمبراطوراً، وتصير زوجته فوزية إمبراطورية بالتبعية.

ثم يرحل الإمبراطور المخلوع، ومعه الأسرة ولا يترك إلا الأميرة أشرف.. النمرة السوداء، التى تصبح عدوة تلقائية لكل من ينافسها على قلب الشاه.

زيارة للقاهرة

وفى عام ١٩٤٢ كان حادث ٤ فبراير الشهير، فأرسل الشاه محمد رضا بهلوى زوجته الإمبراطورة فوزية للاطمئنان على أخيها، وكانت معها ابنتها الأميرة الصغيرة شاهيناز، والأميرة أشرف توأم الشاه.

وتكررت الزيارات للقاهرة.

معانـــاة

على أن الإمبراطورة فوزية كانت تعانى من إرهاق نفسى حقيقى من معاملتها فى القصر، على أنها أم البنات وأنها لن تنجب وريثًا للعرش.

وكانت الإمبراطورة تاج الملوك التى عادت إلى إيران بعد وفاة رضا بهلوى توبخها دائمًا على أن أخاها الملك فاروق استولى على سيف الإمبراطور المتوفى ونياشينه، عندما جىء به لدفنه فى مصر.

كانت تقول لها: إنها متأكدة من وجود هذه المتعلقات داخل التابوت؛ لأنها وضعتها بيدها، وأن الملك فاروق أمر بفتح التابوت واستولى عليها، وكان هذا هو ما حدث بالفعل.

وكانت تقول لها: «أهذه هى الطريقة التى يتصرف بها الملوك فى

بلدكم؟! قد لا تكون أسرة بهلوى عريقة مثل أسرة محمد على، لكننا على الأقل لسنا لصوصًا»

كان المطلوب أن ترحل الإمبراطورة فوزية عن إيران، ولكنها لم تفعل.

اتصـال

ومرضت الإمبراطورة من ذلك مرضًا شديدًا، ولكنه لم يكن لديها أية فكرة عن مغادرة طهران.

وهنا اتخذت الأميرة أشرف أعجب إجراء، فقد اتصلت بالملك فاروق بالقاهرة، وطلبت منه أن يستدعى أخته ونهائيًا من طهران.

استشفاء فى مصر

وبعث الملك فاروق إلى فوزية للحضور للاستشفاء فى مصر، ووافق الشاه على سفرها، ولكن هذه المرة وحيدة دون من ابنتها التى كانت فى حوالى الخامسة من عمرها.

وحضرت فوزية إلى مصر واستقبلها الملك فاروق فى الإسكندرية ثم إلى القاهرة، حيث استقرت فى ركن فاروق بحلوان، ليضرب عليها هناك الحصار الذى يريده.

وكان ذلك فى صيف عام ١٩٤٥.

أزمة الوصيفات

وهنا تحدث أزمة.. فعندما وصلت الإمبراطورية، إذا برجال الحاشية يحيطونها ويبعدون الوصيفات الإيرانيات المرافقات لها، ويتم إبعادهن عنها نهائيًا إلى فندق «سيسل».

وتقدم كبير الأمناء ليقودهن إلى سيارات خاصة ذهبت بهن.

ودهشت الإمبراطورة لهذا التصرف الغريب ولكن الملك فاروق أقنعها إنها فى زيارة عائلية وليست فى حاجة إلى مثل هذه «الرسميات».

وبعد يومين جاء موظف من السفارة الإيرانية بالقاهرة ليتولى إعادة الوصيفات إلى إيران، وتحول الموضوع إلى أزمة.

التقاء أغراض

والحقيقة أن الملك فاروق فى ذلك الوقت كانت خلافاته مع زوجته الملكة فريدة قد بلغت الذروة، والحياة بينهما دخلت فى طريق مسدود.

وكان ينوى طلاقها، ولكن مسألة طلاق حاكم مسلم لامرأته كانت أمرًا غير مسبوق، فأراد أن يسبقه غيره إلى هذا المسلك، ووجد فى الشاه ضالته حتى لو كان ذلك على حساب شقيقته.

الخطابات

وبادرت الإمبراطورة بالكتابة إلى زوجها فى طهران برأى الأطباء ونتيجة فحصهم.. وكانت مسألة وراثة العهد هى السبب فيما كانت تعانيه نفسيًا، ولم يصل رد.

وكتبت مرة أخرى، ومرة ثالثة، ولكن..

ولم يكن أحد يدرى أن الملك فاروق كان يتلقى رسائل الطرفين، ويحتفظ بها عنده.

حصار

وبدأت الإمبراطورة تشعر بأنها فى حصار.. وأن بقاءها فى القاهرة قد طال، وأصبح الموقف يكتنفه الغموض، وبدأت تتساءل هل هى سجينة فى «ركن فاروق».

وكان الملك قد قرر عدم رجوع أخته لإيران وبأى ثمن، وأصبح معروفًا فى أوساط الأسرة المالكة أن الملك فاروق قرر طلاق شقيقته من زوجها الإمبراطور رغم مايعلمه من حبها له، والسبب الظاهر معاناتها فى البلاط الإمبراطورى.

أما السبب الحقيقى فكان هو أن الملك قرر طلاق زوجته الملكة فريدة، التى كان الشعب يقدسها وأنه كان فى حاجة إلى تغطية لهذا الحدث الضخم، ووجد ضالته فى طلاق شقيقته.

الزوج القلق

ونفد صبر الإمبراطور المنتظر لزوجته، وطلب من سفيره فى القاهرة أن يقابل الملك فاروق لمتابعة عودتها، ولكن الملك قد تهرب من لقائه وقد ازدادت تساؤلات إيران وازداد تسويف القاهرة.

طلب طلاق

ولكن فجأة استُدعى السفير الإيرانى لمقابلة الملك فاروق فورا.. وكانت المفاجأة الأكبر هى أن يطلب الملك منه أن يستطلع رأى الإمبراطور.. فى طلاق شقيقته منه.

وسافر السفير فورًا إلى طهران، لينقل للإمبراطور محمد رضا بهلوى ما سمعه من الملك فاروق، وطالت غيبة السفير فى طهران بناء على أوامر الإمبراطور، ثم عاد أخيرا بعد أن كثرت التساؤلات معللاً غيبته بزيارة ابنه المريض.

وساطــة

وفى نفس الوقت كان مبعوث خاص يغادر طهران إلى المملكة العربية السعودية؛ ليقابل الملك عبدالعزيز آل سعود فورًا عاهل السعودية، وسلمه رسالة من الشاه تطلب الوساطة لعودة الإمبراطورة إلى زوجها وطفلتها.

وفى اليوم التالى كان هناك مبعوث خاص سعودى فى مقابلة الملك فاروق، الذى اقترح أن يسافر هو نفسه إلى السعودية.. لشرح الأمر بالتفصيل للعاهل السعودى.

الرفض الإمبراطورى

واستدعى الملك فاروق السفير الإيرانى ليعلم منه أن الإمبراطور رفض مجرد فكرة الطلاق.

والرفض السعودى

وسافر الملك فاروق إلى جدة سرًا.. ومعه شقيقته فوزية واستقبله الأمير منصور بن عبدالعزيز.. نائب الملك، ووزير الدفاع نيابة عن والده العاهل السعودى وأبلغه اعتذار جلالته عن الحضور إلى جدة لأسباب صحية، وأضاف بأن جلالته لا يفكر فى التوسط فى الأمور الشخصية، وأنه قد سحب وساطته فى موضوع إمبراطور إيران وزوجته.

واعتبر الملك فاروق هذا الاعتذار بمثابة انتصار لأفكاره وعاد إلى مصر مكتفيًا بذلك، وعندما طلب السفير الإيرانى مقابلة الملك فاروق.. أكثر من مرة ذهب بنفسه إلى القصر الملكى وأعلن انه لن يغادره إلا إذا تلقى إجابة رسمية عن مصير الإمبراطورة فوزية.

وأفهم السفير أن الرد سيصل إلى طهران مع السفير المصرى الجديد.. الذى كان الملك فاروق قد حدد مهمته مسبقًا بالحصول على الطلاق.

وفى المقابل كذب الملك فاروق على شقيقته وأفهمها أن الشاه الذى يعيش وسط مجموعة من المجندات الأمريكيات الحسان أرسل سفيره إليه ليفاوض فى الطلاق منها، وأعلنت هى أنها لا تصدقه لأكثر من سبب تعرفه.

مهمة السفير

وقدم السفير المصرى الجديد أوراق اعتماده إلى الشاه، وبدأ فورًا فى ممارسة القيام بالمهمة التى كلفه بها الملك فاروق، ففى المقابلة الثانية للشاه أبلغه أن الإمبراطورة فوزية «تطلب الطلاق».. وكانت المفاجأة قاسية للشاه الذى قال للسفير «كنت أنتظر أن تخطرنى بموعد عودتها إلى طهران».

ثم أوضح للسفير أن تقارير السفارة الإيرانية فى القاهرة تقول: إن الملك فاروق هو الذى يسعى فى الطلاق، وأن الإمبراطورة ألحت كثيرًا فى ضرورة عودتها إلى طهران، حتى إن الأمر بلغ أن تحزم حقائبها، ولكن فاروق أمرها ألا تغادر «ركن فاروق» إلا بإذن منه شخصيًا واختتم حديثه بأن هذا الطلاق «مستحيل».

ونجـــاح

وكان السفير يقينًا يعلم أن هذا «المستحيل» لا يتعدى شخص الشاه وحده وأن هناك فعلاً شبه اتفاق على إنهاء هذا الزواج بأمر شخصى آخر، هو الأميرة أشرف الإمبراطور الحقيقى، وأن هذا القرار قد اتخذ فعلاً بعد ولادة الإمبراطورية فوزية للأميرة شاهيناز وإشاعة إصابتها بعقم.

وأخبر السفير الشاه بأن الإمبراطورة لا تريده وأنه لايجوز له أن يعيش ـ كرجل ـ مع امرأة لا تريده.

وشـــروط

ووافق الشاه أخيرًا على أن ترد فوزية مجوهرات التاج الإيرانى، وخاتمًا تذكاريًا صغيرًا كان قد أهداه لها فى أول لقاء لهما.

وعاد السفير إلى القاهرة لينقل شروط الشاه، ولم يصدق فاروق أن الشاه وافق على الطلاق، وطلب من السفير الاستعداد للعودة إلى طهران فورا، وبمجرد وصوله قابل الشاه ليرد له خاتمه الأسطورى، ولكن الشاه

طالبه بباقى المجوهرات وأيضا بالسيف والنياشين التى كانت موجودة فى تابوت الشاه الراحل رضا بهلوى، والتى كان فاروق استولى عليها عند دفنه بمصر وخرج السفير من عند الشاه ليحمل حقائبه التى جاء بها من القاهرة والتى لم تفتح بعد، ويعود إلى القاهرة، وفى ذهنه أن يعتزل العمل السياسى كله، ولكنه عاد مضطرًا إلى طهران مرة أخرى ليقنع الشاه بالتنازل عن شروط المجوهرات.

طلب أصعب

ووافق الشاه على التنازل عن شرط المجوهرات، ولكنه استبدله بشرط أكثر صعوبة.. خطاب من فوزية.. بخط يدها تطلب فيه الطلاق.

وعاد السفير إلى القاهرة.. ليطلب الخطاب.

الملك الكاذب

وحتى يحصل الملك فاروق على هذا الخطاب مارس كل فنون الكذب والغش والخداع التى يجيدها مع شقيقته وقال لها: إنها بذلك تضطره أن يكشف سرًا ما كان يجب أن تطلع عليه وقدم لها صورا كثيرة للشاه مع نساء غيرها، أقسم لها أن السفير الإيرانى فى كل مقابلاته المتقاربة فى الفترة القليلة السابقة؛ إنما كان يسعى لإطلاعها على ذلك السر ويلح بتكليف من الشاه فى إتمام إجراءات الطلاق وانه هو ـ فاروق ذاته ـ كان يسوف فى هذه المسألة.

وقال لها: إن بعض أصدقائه من الشخصيات الأجنبية الكبيرة حذروه من عودتها إلى إيران، فهناك الكثير الذى ينتظرها من انتقام الشاه وأخته المتسلطة الأميرة أشرف.

وخضعت فى النهاية، ووقعت الخطاب.. فوزية أحمد فؤاد ثم، انهارت

وسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

ولم يكن هذا يقلق الملك فاروق كثيرًا بعد أن حصل على ما يريد.

الشاه... والخطاب

وبمجرد وصوله طهران قدم السفير المصرى الخطاب إلى الشاه، وتأمله غير مصدق لعينيه، لقد كان حكما بالإعدام.. واجب النفاذ على ميت عظيم، ولم يبق إلا موعد التنفيذ.

وفى اليوم التالى تم كل شيء، وتسلم السفير وثيقة الطلاق وتسلم الملك فاروق الوثيقة، وتفحصها طويلاً، ثم ظهرت على وجهه علامات الارتياح الشديد.

حقائب مختصرة

وخرجت متعلقات الإمبراطورة المطلقة فوزية من قصر المرمر فى طهران فى ٣٠٠ حقيبة من الحجم الكبير.

وفى القاهرة احتجزها الملك فاروق فى بدروم قصر عابدين لينتقى منها ما يشاء ويرسله إلى قصر القبة.

وأخيرا وصلت الحقائب إلى فوزية فى ركن حلوان وقد تم اختصارها إلى ١٣٠ حقيبة فقط.

مُسكـن

بالرغم من الحب الشديد الذى كان يحمله الشاه لفوزية، وأنه بكى عندما أصرت أخته القاسية أشرف على أن تحرمه منها، إلا أنه اضطر إلى طلاقها بعد التآمر المزدوج من جهتين وشخصيتين بعيدتين مكانًا وأهدافًا الأميرة أشرف والملك فاروق وذلك بعد أن قاوم الشاه

وحاول بقدر ما استطاع.

وكان الشاه يقول: إذا كان علىّ أن أنفصل عن فوزية، فإنى سأبقى حزينًا طوال حياتى.

وفعلاً حزن الشاه حزنًا شديدًا.. وأصبح شديد الذهول والحيرة.

وبدأت المسألة النفسية تتحول إلى مرض عضوى، فى شكل آلام معدية وبدأت حالته عموما تسوء.

وهناك كان مُسكن.. تعلم أشرف أنه يقينًا مفيد فى علاج «حالة الحب» التى يعانى منها الشاه.. مُسكن اسمه المرأة شديدة الجمال.

واستوردت الأميرة المتآمرة صنفًا من هذا الدواء.. صنف أمريكى فتاة أمريكية تدعى «روث ستيفز».

وبدأ تناول الدواء فوراً... أقصد بدأت علاقة طيبة بين الشاه والجميلة الأمريكية.

واستمرت العلاقة التى تطورت إلى حب عنيف، وترابط كامل، وشعرت الأميرة أشرف أن العلاج أتى بنتائجه المرجوة، فبدأت فى إيقاف الجرعات أقصد فى إبعاد «روث» عن الشاه.

وبعد أسابيع قليلة انتحرت الفتاة روث.

وحزن الشاه حزنًا شديدًا، واعتصم فى حجرته لايبرحها لمدة أحد عشر يومًا.

وبدأت الأسرة المالكة تبحث للشاه عن علاج دائم زواج وكانت ثريا.

■ ■ ■

فيصل والعرش الشاهنشاهى



■ وكـان من الطبـيـعى أن تكون الأمـيـرة الجميلة محط أنظار طالبى الزواج من الأمراء والملوك، وتقدم الملك فيصل طالبًا الزواج من الأميرة الشابة ورفضت الأميرة طلب الملك وتزوجت من غيره، ولكن سرعان ما تم طلاقها لتعيش حياة أخرى أغرب وأعجب.. فماذا حدث لها؟

الأميرة شاهيناز

هى ابنة الإمبراطورة فوزية من زوجها الشاه محمد رضا بهلوى.. كانت فى حوالى الخامسة من عمرها، عندما غادرت أمها الإمبراطورة طهران إلى القاهرة، بدعوة من شقيقها الملك فاروق.. للاستشفاء.

وكانت تقاليد البلاط الإمبراطورى الإيرانى لا تسمح لمثلها بالسفر خارج البلاد، وبالتالى رفض الشاه أن تصاحب الأميرة الصغيرة أمها الإمبراطورة فى رحلتها إلى القاهرة التى كان من المفروض ألا تطول.

وانتقلت الأميرة الصغيرة، مع مربيتها، لتقيم فى الفيلا المخصصة لعمتها الأميرة أشرف فى القصر الإمبراطورى.

ولما بلغت السادسة، أرسلها الشاه إلى سويسرا لكى تتعلم، وتقيم هناك بصفة مستمرة.

ثم وقع الطلاق بين أبويها

وكانت تعليمات الشاه المشدد ألا تعرف الأميرة الصغيرة شيئًا عن الموضوع برمته، وعن أمها فنشأت على ذلك، والأكثر من ذلك أنها كانت تعتقد أن الأميرة أشرف.. هى أمها.

وحاولت فوزية أن ترى ابنتها بكل الوسائل.. إنسانية.. ربلوماسية.. ولكن هيهات. وظل الحال كذلك، حتى فوجئت الأميرة الصغيرة مرة واحدة بكل شىء.

ويأتيك بالأخبار

فقد قامت الثورة فى مصر ١٩٥٢ وخلعت الملك فاروق وتناقلت صحف العالم والناس فى كل مكان ما يجرى فى مصر.

ومن بين هؤلاء الناس، أطفال مدرسة موغلة فى البعد فى سويسرا.. وبينهم الأميرة الصغيرة.

ولم تبد شاهيناز أى تأثر بالموضوع.. وتعجب زملاؤها الصغار من البرود الذى استقبلت به الموضوع، وازداد العجب عندما قالت: إن الأمر لا يعنيها فى قليل أو كثير، وازداد العجب أكثر وأكثر عندما أخبرتهم أنها لا تعرف أن الاسرة المالكة فى مصر هم بقية عائلتها، وكادوا يصعقون من الدهشة عندما علموا أنها لا تعرف أن الملك فاروق هو خالها، وأن أمها هى «الأميرة فوزية» شقيقته.

وتطوعت إحدى صديقاتها الصغيرات بشرح كل شىء لها.

وثــورة

عادت الأميرة الصغيرة ثائرة باكية ساخطة إلى المنزل لتصب لعناتها على رأس مربيتها، التى أخفت عنها كل ذلك.

وفى لحظتها أبرق رئيس الحاشية المرافقة للأميرة إلى الشاه بكل التفاصيل.

وخلال ٤٨ ساعة كانت هناك بعثة إمبراطورية مكونة من الأميرتين العمتين.. شمس الملوك وأشرف بجوار الأميرة الصغيرة، فى مهمة عاجلة من الشاه: لشرح الخطوط الأساسية للقصر الإمبراطورى فى طهران للأميرة الصغيرة، حتى لاتتحول القصة فى داخلها إلى عقدة نفسية.

الخطاب.. الأزمة

وهدأت الأميرة الثائرة، وبدأت تفكر فى الأم الغائبة، ثم كتبت خطابًا.. بدأته ولأول مرة فى حياتها: «أمى الحبيبة» وكان الخطاب فى حد ذاته أزمة.

فالثورة قامت فى مصر، والملك فاروق نفسه طُرد إلى إيطاليا والأسرة المالكة فى مصر لا يعرف أحد مصير أفرادها.

فكيف يمكن الاستدلال على مكان الأم.. الأميرة فوزية لتوصيل الخطاب إليها.

وشغلت بالموضوع سفارات إيران فى سويسرا وإيطاليا ومصر.. وأخيرا وصل الخطاب إلى الإسكندرية.. فيلا إسماعيل شيرين الزوج الثانى للأميرة فوزية.

والخطاب.. المفاجأة

كانت مفاجأة.. ربما من أكثر مفاجآت حياة الأميرة فوزية أن تتلقى هذا الخطاب من ابنتها وبعد هذه الغيبة الطويلة.

قرأت الخطاب عشرات المرات واستطلعت الصور التى بعثتها لها ابنتها عشرات المرات.

ثم ردت على ابنتها، التى كانت تتحرق شوقًا فى انتظار الرد.

وأصبحت الرسائل بينهما منتظمة كل أسبوع خطاب.

الدراسة

وخلال ذلك اجتازت شاهيناز مراحل دراستها الثانوية، وفى المرحلة الجامعية فضلت الأميرة أن تتخصص فى دراسة التاريخ.

وقرر الشاه أن تكتفى ابنته بهذه المرحلة التى بلغتها من الدراسة، وأن تعود إلى إيران، حيث تتولى المتخصصات فى القصر إعدادها للحياة الاجتماعية والملكية والزوجية، وعادت الأميرة شاهيناز إلى طهران.

الأميرة.. والإمبراطورة الجديدة

وكان الشاه قد تزوج من زوجته الثانية.. ثريا.

ونزلت الأميرة العائدة فى ضيافة عمتها.. الأميرة أشرف لتساعدها

على التكيف على الحياة فى إيران وحياتها الجديدة فى القصر.

واستغرق ذلك أسبوعًا كاملاً قابلت بعده الإمبراطورة ثريا، وسرعان ما ائتلفتا، حتى أنهما كانتا كثيرًا ما تظهران سويا فى المناسبات العامة والخاصة.

الملك فيصل العراقى.. مرفوض

وكان من الطبيعى أن تكون الأميرة الشابة محط أنظار الراغبين فى الزواج من المتصلين بالبلاط الإمبراطورى.

وكانت العلاقات بين إيران الشاه والحكم الملكى فى العراق ـ آنذاك ـ فى أفضل حالاتها.

وكان طبيعيًا والحالة هذه أن يتقدم الملك فيصل.. الشاب.. ملك العراق طالبًا الزواج من الأميرة الإيرانية الشابة.

وكان الشاه الأب كريمًا سمحًا مع ابنته، وترك لها حرية الرأى.. فرفضت الملك فيصل.

وتزوجت زاهدى

وقرر الشاه زواج الأميرة الشابة ابنة الإمبراطور شاهيناز من ابن الجنرال المخلص زاهدى.. المهندس الزراعى «أردشير زاهدى».

ذلك الشاب المتحمس بشدة للقصر.. الذى يرأس مجموعة من الشباب يضعون رءوسهم فى أكفهم دفاعًا عن العرش «الشاهنشاهى».. والذى كان قد عين ياورافى القصر الإمبراطورى.

ولعبت الإمبراطور ثريا دورًا مهمًا فى إقناع الأميرة الصغيرة، وكانت الأميرة فى ربيعها السابع عشر، والزوج فى السابعة والعشرين من عمره.

وأيضا أثمر الزواج عن طفلة.. مانياز

الأميرة وريثة للعرش

وفى هذه الأثناء التى وضح فيها أن الامبراطورة «ثريا» عقيم.. وليس هناك أى احتمال أن تأتى للشاه بولى للعهد يرث العرش، وتحت تأثير حب الشاه العظيم لزوجته الشابة الجميلة، حتى أنه كانت هناك تأكيدات رسمية بأن الشاه لن يتخلى عن ثريا حتى ولم تنجب وريثًا للعرش.

وفى هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى الأميرة شاهيناز، لتكون وريثة لعرش الطاووس ولأول مرة فى التاريخ.

وجرت ترتيبات لتعديل الدستور الإيرانى بما يسمح بهذا الإجراء، ولكن الترتيبات لم تكتمل.

فقد رفضت الإمبراطورة الأم.. تاج الملوك احتمال أن ينقل التاج إلى اولاد زاهدى.

وطلاق

ولكن هذا الزواج لم يكن له من المقومات ما يديمه طويلاً، وافتقد الزوجان الشابان وسائل التفاهم.

وعرضت الأميرة على الشاه فكرة الطلاق من زوجها وفى البداية عارض الشاه وبشدة، ولكنه تحت إلحاح ابنته وحيدته.. وافق، ولكن بشروط:

«أن تختفى شاهيناز تمامًا عن العيورن، وتعتزل المجتمعات والحفلات ولا تقابل أحدًا.. ولايراها أحد»

أى باختصار أن تدخل فى ثنايا النسيان.

ولم يكن أمام شاهيناز الضجرة بزوجها إلا أن توافق وتم الطلاق.

وسـفـر

وفى محاولة للنسيان.. وتنفيذ شروط الوالد القاسية غادرت الأميرة المطلقة طهران فى اليوم التالى مباشرة إلى سويسرا.

لتعيش حياة جديدة بعيدة عن الرسميات والقصور.

الإمبراطورة فرح ديبا

وقبل طلاق الأميرة شاهيناز كانت الحياة الزوجية للإمبراطور نفسه مع الإمبراطورة ثريا قد انتهت.

وكانت الأميرة شاهيناز قد استقبلت فى بيتها فى طهران الطالبة فرح ديبا.. الإيرانية التى تدرس الهندسة المعمارية فى باريس..

وكان الشاه هو الآخر قد زارها.. ليقابل.. الطالبة فرح ديبا.. التى أصبحت بعد ذلك الإمبراطورة فرح ديبا التى اعتلت عرش العرش.. وفى قلبها الكثير من الامتنان للأميرة ابنة زوجها.

زواج منفرد

عاشت الأميرة شاهيناز حياة عزلة فردية فى سويسرا، ولكن ذلك لم يدم طويلاً.

فقد وضع القدر فى طريقها زوجها الثانى.

تعرفت على شاب.. هيبى خنفس، من هؤلاء الذين يهمون على وجوههم فى الحياة، لانظام لا استقرار.. ولا أى شىء.

ولسابق يقينها الراسخ بأن الشاه والدها لن يوافق على هذا الزواج، ولا على الزوج فقد أتمت كل إجراءات الزواج بمفردها.

ثم فكرت بعد ذلك أن تُخطر من تريد.

الأم.. أولا

وكان أول من فكرت فى الكتابة إليه هو الأم.. الأميرة فوزية فى مصر وتلقت الأم التى حاولت جاهدة نصيحة ابنتها الا تفصح عن زواجها الأول والتى لم توافق عليه إلا بعد طول نقاش لمتاعب ابنتها.. تلقت الخبر وسعدت بقدر ما قالت لها ابنتها أنها سعيدة.

وردت على الابنة بهدية وتهنئة.

وكانت الهدية صورة تجمعهما والأميرة مازالت بعد طفلة صغيرة، ودعوة لزيارة مصر تحققت بعد سنوات من ذلك.

ثم.. زوجة الأب

وكان الخطاب الثانى الذى طيرته الأميرة السعيدة شاهيناز هو لزوجة أبيها.. الشهبانو فرح ديبا.

وفى هذه المرة كان الخطاب طويلاً يحمل كل التفاصيل، ويحمل رجاءً خاصًا؛ لأن تساعدها الشهبانو فى الحصول على رضاء الشاه وموافقته على الزواج الذى تم فعلاً.

الهيبى.. إيرانى

كان عريس الأميرة شاهيناز.. خسرو جاهينانى إيرانيًا وابن الجنرال جاهينانى أحد قواد الشاه فى حروبه مع الخارجين عليه من الشيوعيين الذين استقلوا بإقليم اذربيجان الإيرانى على الحدود الروسية، ويعلنونه جمهورية مستقلة، وكان من أخلص قواده فى هذه الحرب وفى النصر.

وتحدثت الأميرة بإسهاب عن عريسها وآماله، وطموحاته.

واختتمت خطابها بكلمات قريبة من قلب المرأة؛ لتؤثر على عواطف

الإمبراطور وقالت: «إن كل ما حدث بينى وبن «خسرو» سببه الحب.. والحب هو و حده الذى صنع المعجزة، فتلاقينا واتفقنا على الزواج، ثم تزوجنا فعلاً»

هدية.. ونكسة

وكان رد الشهبانو هدية رمزية فاخرة، وتهنئة للعروسين وتمنيات بالسعادة والتوفيق.

وهذا موقف الإمبراطورة.. فرح ديبا.

أما الوالد الغاضب والساخط.. فهو لاعن لهذا الزواج معارض له للأبد وهذا رده.

أما هديته، أو لنقل صفعته، فكانت أكبر نكسة فى حياة الأميرة المدللة.. قطع مخصصاتها المالية.

حمام سلام

أحنت الشهبانو رأسها لتمر عاصفة غضب الشاه على شاهيناز لزواجها دون علمه ولا مشورته.

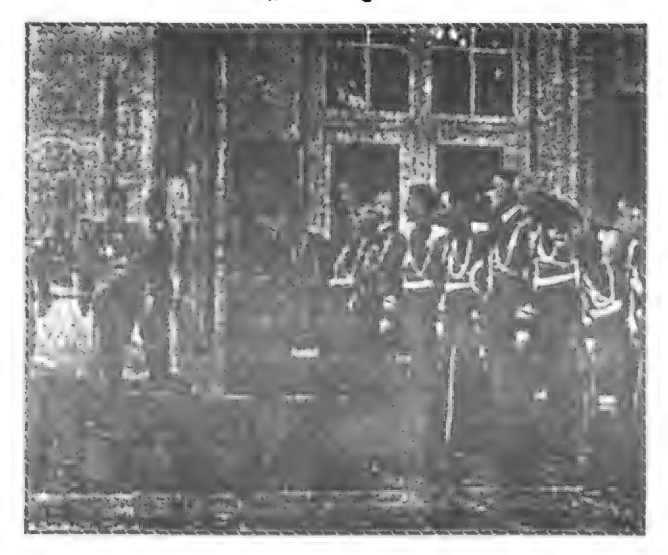
ولكنها وفى عنقها دين للأميرة، وهى الزوجة وأم ولى العهد.. أخذت تلح فى لين ودأب.

وأخيرًا نجح السعى وعفا الأب، وسامح وأعطى بسخاء.

استقرار

استقرت الأميرة شاهيناز فى سويسرا، تعيش فيها عيشة رغدة.. ويتردد عليها الأحباء خاصة أمها الإمبراطورة الأميرة السابقة فوزية.

محاولة اغتيال



■ وكان من بين الحاضرين شاب صغير يحمل آلة تصوير عادية، وبينما كان الجميع فى استقباله إذ بالشاب يفتح الكاميرا ويخرج مسدسًا ويطلق منه ثلاث رصاصات على رأسه ويعاجله برصاصة رابعة اخترقت خده، وخامسة استقرت فى ذراعه، ولكنه لم يمت.. فلماذا؟.

محاولة اغتيال

جرت أول محاولة لاغتيال الشاه فى فبراير ١٩٤٩ على يد أحد أعضاء حزب تودة الشيوعى الإيرانى، بالرغم من أن الحزب كان معلنًا ومعترفًا به من قبل السلطات الحاكمة، وكان واسع الانتشار والنشاط للغاية.

حقيقة كان الإرهاب والفوضى من الأمور السائدة فى إيران فى ذلك الوقت، ولكنها كانت المرة الأولى التى يوجه فيها هذا الإرهاب إلى الأسرة الحاكمة، والشاه بالذات.

وكان هذا اليوم شديد البرودة، حيث تساقط الجليد فى شوارع طهران، ولكن ذلك لم يمنع حزب تودة من تنظيم مؤتمر، لاستعراض القوة فى العاصمة طهران.

وكان هناك فى نفس اليوم حفل فى جامعة طهران يحضره الشاه وكانت إجراءات الأمن فى العادة شديدة، وفى هذا اليوم أكثر شدة.. بالطبع نظرًا للظروف عمومًا، وما فعله حزب تودة هذا الصباح خاصة.

وكان من بين هذه الإجراءات بالطبع ألا يُسمح لأى شخص بدخول حرم الجامعة إلا بتصريح خاص وبين الحادية عشرة والثانية بعد الظهر.

وفى الوقت المحدد حضر كبار الشخصيات من السياسيين والعسكريين ورجال الصحافة.

وكان من بين الحضور شاب صغير، يحمل آلة تصوير عادية، وبطاقة صحفية من جريدة «راية الإسلام».

وانطلق الرصاص

وفى الساعة الثالثة حضر الشاه، وبينما كان الجميع فى استقباله، ورجال الأمن فى حالة استرخاء واطمئنان لما قاموا به من إجراءات، لضخامة عددهم بين الحاضرين.

وفى زيه العسكرى

ودخل الشاه ساحة الجامعة، وتقدم حتى صار أمام الدرج المؤدى للمدخل الرئيس لمبنى الجامعة، والصحفى الشاب يقف أسفل الدرج، حتى صار الشاه على بعد خطوات قليلة منه، وإذ بالشاب يفتح الكاميرا فى سرعة ويخرج مسدسًا صغيرًا، ويطلق منه ثلاث رصاصات مباشرة على رأس الشاه.

وشاءت إرادة الله أن يكون فى عمر الشاه بقية، فقد اخترقت الرصاصات الثلاث قبعته العسكرية، وفقط كشطت بضع شعرات من رأسه.

ولكن إطلاق الرصاص المفاجئ أحدث ذعرًا شديدًا بين الحضور، حتى أن المكلفين بأمن الشاه شخصيًا لاذوا بالفرار، بدلاً من الانقضاض على هذا الذى يطلق الرصاص، وتركوا مليكهم وحده فى مواجهة الرجل الذى يحاول قتله والذى ما زال يطلق الرصاص.

ووجدها الشاب فرصة لإتمام ما بدأ.. فأطلق رصاصة رابعة اخترقت خد الشاه لتخرج من شفته العليا مفجرة بركانا من الدم.

وأطلق رصاصة خامسة استقرت فى ذراع الشاه، حيث بدأ الجامنى يوجه النار إلى قلبه.

وكان من المؤكد أن تقضى عليه الرصاصة السادسة، ولكنها انحشرت فى المسدس ولم تنطلق وعاش الشاه.

إسلامى.. ماركسى

وهنا فقط تحرك الجميع وأم الشاه رجاله صائحًا أن يبقوا هذا المعتدى على قيد الحياة ورغم ذلك قتلوه فى الحال.

ونقل الشاه إلى المستشفى.

وفى التحقيقات اتضح أن الشاب يدعى نصر فخرارى، وأنه عضو فى حزب تودة الشيوعى، وأنه «إرهابى دينى».. «إسلامى ماركسى».

وبعدها أعلن الشاه حل حزب تودة، وحظر نشاطه، ولكنه ظل يزاول نشاطه «تحتيًا».

ومحاولة ثانية

وكما نجا الشاه من هذه المحاولة شبه الأكيدة لاغتياله، نجا من محاولة أخرى أكبر وأصرح وأعنف، إنها إرادة الله التى لا إرادة فوقها، حتى مع حسن التدبير وتوافر الإمكانيات.

وكانت المحاولة هذه المرة فى عقر دار الشاه.. فى قصر المرمر الإمبراطورى، والقائم بها أحد المكلفين بحراسة الشاه وحمايته.

دخل الشاه القصر وفى معيته وحراسته الكثير من الرجال، وبعد الباب مباشرة كان يقف جندى الحراسة، وفى يده مدفع رشاش وبمجرد أن أصبح الشاه فى مواجهته وقبل أن يصل الشاه إلى مكتبه.. انهمر الرصاص.

وأُصيب عدد كبير من الحضور الحراس.

أما الشاه المستهدف فلم يصب بخدش واحد.

وثبت من التحقيقات أن وراء هذه المحاولة أيضًا.. المجموعات الشيوعية، وكان يتزعمها رجل يدعى «نيكاه».

قُبض عليه، وحُكم عليه بالسجن ١٠ سنوات.. ثم عفا عنه الشاه بعد فترة.

وكان هذا العفو ربما كان وحده سببًا لأن يقوم نظام الخومينى بعد ذلك بإعدامه.

وثالثة

كان ذلك فى ١٠ إبريل ١٩٦٥.

وفى مايو من نفس العام فشلت محاولة أخرى لاغتياله..

كان يزور كندا وجرت فى الفندق الذى نزل فيه.

ورابعة

وفى مارس ١٩٦٧ كان فى إقليم عربستان وهاجمه ٤٠ رجلاً مسلحًا.. وفشلوا أيضًا فى اغتياله.

وسقوط بالطائرة

وسقطت به الطائرة التى كان يقودها عدة مرات، وأيضا نجا من الموت.

وحادثة سيارة

وفى إحدى المرات قسمت سيارة «أتوبيس» السيارة التى يركبها ولم يمت

أهم محاولة اغتيال

على أن أهم محاولة اغتيال فى حياة الشاه.. هى التى لم تحدث فعلاً.

فبعد نجاح الثورة الخومينية فى إيران أرسل آية الله الخومينى للشهبانو، يطلب منها أن تقتل الشاه مقابل العفو عنها هى شخصيًا.

وكانت فرح ديبا تروى ذلك للصحفيين بكثير من الايستغراب.. والاشمئزاز.

كان هناك بقية من عمر وبقية من قدر ولابد من استيفائها.

■ ■ ■

أميرات العرش



■ ■ وأصبح لكل أميرة حكاية ورواية، ودبت الغيرة فى نفوسهن واشتعلت المنافسة بين الأميرات ولكن ما هو موقف الأب من بناته الأميرات ومن هى الأميرة الشريرة القاسية؟.

الأميرة أشرق

هى الشقيقة التوأم للشاه محمد رضا بهلوى وقد ولدت بعده بخمس دقائق فقط ولايختلف اثنان على أنها أكثر الشخصيات تأثيرًا عليه على الإطلاق، وأن الشاه والأمير أشرف هما وجهان لعملة واحدة، بل إننا لا نغالى إذا ما قلنا إنهما وجه واحد من هذه العملة.. وجه واحد هو الشاه وهو أيضا وفى نفس الوقت هو الأميرة أشرف.. وبنفس القدر، إن لم يكن أكثر، وتؤيدنا فى ذلك الوقائع والأحداث.

وقد أرجع الكثيرون هذا التأثير إلى ما هو معروف من تناسق وتناغم واتحاد فى كثير من الأمور بالنسبة للتوائم.

وهو قول صحيح إلى حد كبير، ولكنه لايفسر أبدًا كم هذا الخضوع من الشاه لشقيقته التوأم الأميرة أشرف، وطغيانها وسيطرتها عليه بشكل كامل، حتى إنها كانت تدير حياته الخاصة فى أدق تفاصيلها، وأيضًا كثير من الأمور العامة على عكس مايريد الشاه تمامًا وهو شبه خاضع لايثور إلا فى حدود نفسه.

وقد قيل: إن الشاه كان هو لين الجانب طيب فيه كثير من الرقة والحنان، بينما هى قاسية.. شريرة.. مسيطرة ولكنها.. من خلال سيطرتها على أخيها لم تكن تسمح بهذا التناقض أن يظهر على السطح أبدًا.

النمرة السوداء

ولكن شخصيتها المتفردة القاسية المتآمرة كانت معروفة للجميع حتى أنها كانت دائمًا ما توصف بالنمرة السوداء، حتى صار هذا الوصف لقبا أو كناية عنها.

وربما يسىء هذا الوصف إلى الشخص عندما يلحق به، ولكن الأميرة على العكس من ذلك كانت سعيدة به، فتقول فى أحد فصول مذكراتها:

«منذ حوالى عشرين عامًا وصفنى صحفيون فرنسيون بأننى أشبه «الفهد الأسود».. أو «النمرة السوداء»..

«وأعترف بأننى أحببت هذا التعبير، وأحسست بأن هذا الوصف ينطبق فعلاً علىَّ فأنا كالفهود والنمور طبيعتى ثائرة هوجاء، ولكن عن ثقة بالنفس، ولكننى أتمنى فعلا - فى بعض الأحيان - لو كانت لى مخالب الفهد، وصحيح بأن أحداث بلادى قد أوضحت أننى امرأة لا تقبل الغفران والتسامح».

وفى هذا أيضا ننقل وصفًا لها قال به أحد أصدقائها: «هى حين تغضب أو حتى وهى غير غاضبة تتحدث باندفاع، وبدون تفكير وتقول أشياءً تصل إلى حد اللدغ والوقاحة»

عقد نفسية

ولعل فى طفولة الأميرة وما كان يعتمل فى صدرها من خواطر وما يحيط بها من أجواء.. تفسيرًا لكثير من أمور وتصرفات الأميرة بعد أن كبرت، فمن الواضح أن تصرفات الأميرة لابد وأن تكون راجعة إلى وناجمة عن «عقد نفسية» نشأت وترسبت وتأصلت من تلك الظروف التى وجدت فيها وعاشتها فى طفولتها.

تأثير الأب

وعن التأثير الشخصى الذى تركه الأب رضا شاه فيها تقول أشرف: «على الرغم من خوفى من والدى، إلا أننى كنت أشاركه الكثير من الصفات، فكان لى نفس عناده، ونفس زهوه الشديد بنفسه ونفس إرادته الحديدية»

«إذا وجدت الناس لا يهتمون بى.. أرغمتهم ودفعتهم لهذا الاهتمام»

والحقيقة أن دور الأب بالنسبة للأميرة أشرف لم يقتصر على التأثير النفسى غير المباشر الذى التقطته هى أو تشربته من شخصية والدها، بل هناك من أفعال الأب رضا شاه وأقواله ما كان له تأثير مباشر وتوجيه لتصرفات أشرف فى مسألة لها أكبر الأهمية والخطورة، وهى علاقة أشرف بأخيها التوأم الشاه.

فقد كان الشاه الأب معجبًا بشخصيتها الجادة وصلابتها ولم يكن يخفى شعوره هذا.

وعلى الجانب الآخر كان الشاه الأب لا يخفى شعوره الممزوج بكثير من خيبة الأمل ـ الذى يكاد يصل إلى حد الاحتقار ـ عندما يتحدث عن ابنه محمد رضا.. ولى العهد.. الشاه فيما بعد وكان هذا الشعور المعلن سببًا فى أمرين، كلاهمان أسوأ من الآخر.. فالصبى الابن.. ولى العهد. فقد ثقته بنفسه إلى حد كبير والصبية الابنة زادت ثقتها بنفسها أكثر من اللازم.

ومن أقوال الأب التى كانت واضحة فى هذا الخصوص ومعلنة يعرفها الكثيرون:

«إن الطبيعة لابد وأن تكون قد خلطت الأمور فى رحم زوجتى، إذ كان يجب أن تكون أشرف هى الولد.. ومحمد رضا هو البنت»

وعندما كان الأب الشاه رضا بهلوى فى طريقه إلى المنفى، كانت آخر كلماته لأشرف:

«إننى أتركك لتكونى بجانب شقيقك.. فهو محتاج إليك.. كونى بجانبه دائمًا».

ونفس الكلام تقريبًا عندما زارته فى منفاه فى جوهانسبرج عاصمة جنوب إفريقيا، وهو يدفعها للسفر بعد عدة أيام قلائل..

«كم أتمنى أن تبقى معى، ولكننى أعلم أن أخاك الشاه فى حاجة إليك فاذهبى إليه».

وكان طبيعيًا بعد كل هذا أن تتسلط أشرف بشخصيتها القوية على شقيقها الشاه، ليصير كما وصفته الإمبراطورة ثريا كالخاتم فى إصبعها، وانه حينما يغير طبيعته الطيبة السمحة، فإنها تعلم أن ذلك بتأثير الأميرة أشرف.

وكان طبيعيًا أيضًا أن يبدو تصرفاتها دائمًا وكأنها هى الإمبراطورة الحقيقية للبلاد، بل وأن تطغى شخصيتها على شخصية شقيقها الإمبراطور فى كل الأمور الخاصة به هو شخصيًا. والعامة المتعلقة بشؤون الحكم والتى لم تكف يومًا واحدًا عن التدخل فيها، وكانت فى هذه وتلك تجبره، فى كثير من الأحيان على أن يتصرف ضد إرادته تماما.

ولنمض فى استعراض هذا النموذج البشرى الفذ..

ولنبدأ بالجانب الشخصى تمامًا.

الزواج الأول

تتضمن مذكرات الأميرة أشرف صورة مظلمة لزواجها الأول، فهى تقول: «سرت إشاعات ـ فى القصر طبعا ـ بأن أبى وجد زوجين مناسبين لى ولأختى».

«وبدأت مربيتى والخدم وحتى أمى يهنئوننى بذلك، إلا أن خبر الزواج كان مخيفًا لى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وأجفلت من فكرة الزواج.. ناهيك عن الزواج برجل لم أشاهده من قبل»

«وكنت خائفة من الإعراب عن مشاعرى لأبى، وطلبت من شقيقى.. ولى العهد أن يتدخل لدى أبى ليغير رأيه، ولكن أخى استبعد أن يغير أبى

رأيه ولا فائدة من المعارضة».

«وأول مرة رأيت العريسين كان فى ملعب التنس مع أخى».

«وبالرغم من أننى كنت غير متحمسة لفكرة الزواج إلا أننى ركزت على المرشح لى كزوج المستقبل.. «فريدون جام».. ضابط شاب وابن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ولابد أن أعترف أننى وجدته طويلاً، جميلاً، رشيقًا.»

أما المرشح عريسًا لشمس فكان يدعى «على قافام» وهو من أسرة إيرانية عريقة».

«ولسوء الحظ فإن شمس أبدت إعجابًا أكثر بعريسى من العريس، ولما كانت شمس هى الكبيرة فقد كانت لها امتيازات خاصة، ولذا فقد تقرر تبادل العريسين».

«وتم الزفاف ـ رغم اعتراضى ـ فى حفل مشترك مع أختى شمس»

«وكنت أتجنب لقاء «قافام» كلما أمكن ذلك، وبدا هو غير عابئ بإعراضى عنه، وأنه راض بأن يكون الزوج الأسمى للأميرة، ومنذ بداية الزواج نام كل واحد منا فى غرفة منفصلة».

«وطرأت فكرة الطلاق على ذهنى.. ولم أجرؤ أن أعلنها لأبى، وعندما صارحت أخى، قال إنه لا فائدة من طرح هذا الموضوع على الشاه، فلن نجنى إلا غضبه».

هـروب

وبعد قليل من الوقت مع هذا الزواج الفاشل والإجبارى حلت الأميرة أشرف المشكلة بطريقة فجة.. ساذجة.

وهذا ما لا تقوله أشرف فى مذكراتها.

فوجئ الجميع يومًا باختفاء أشرف من القصر، وعلموا أنها هربت مع أحد ضباط الحرس الإمبراطورى الذى كانت تهيم به حبًا وأطلق والدها فى أثرها من يتعقبها، ويأتى بها إلى القصر.

وعادت لتعيش مجبرة مع زوجها.

أما ضابط فقد اختفى من الوجود نهائيا.

وكانت الرقابة والضغوط عليها بعد ذلك أصعب من أن تدع لها مجالاً لأى حماقة جديدة.

وأخيرا طلاق

بالرغم من أن الزواج الأول بدأ فاشلاً أو ولد ميتًا، إلا أنه استمر طويلاً لمجرد أن الأميرة أشرف جبنت عن أن تفاتح أباها فى الطلاق، وعندما طلبت من شقيقها التوأم أن يتدخل فى الأمر، كان رده كالمعتاد: «إنه لافائدة من الكلام مع الشاه.. الأب.. فى هذا الموضع».

وبعد أن أقصى الشاه الأب عن الحكم، واقترب من أولاده بالدرجة الكافية أن يشعروا بأبوته، فاتحته أشرف فى الأمر، وكيف أنها تعانى طوال هذا الوقت فقال لها: إنه سيكتب لأخيها الشاه فى هذا الموضوع وأخيرًا تم الطلاق واحتفظت بابنها شهرام.

الزواج الثانى

ترددت الأميرة أشرف على مصر أكثر من مرة، أولها فى صحبة الأميرة فايزة وخلال هذه الزيارات تعرفت بشاب مصرى وتطورت العلاقة إلى حب متبادل.

وكان أحمد شفيق ـ وهذا هو اسمه ـ متفرغًا للأعمال الحرة وابن أحد رجال القصر الملكى فى عهد الخديو عباس.

وفى إحدى زياراتها للقاهرة اصطحبت أشرف معها أحمد شفيق فى رحلة العودة إلى إيران، وهناك وافق الشاه على زواجهما.

وتمت مراسم الزواج فى قصر الإمبراطورة الوالدة تاج الملوك فى طهران.

ودام هذا الزواج طويلاً رغم ما صادفه من عقبات، ولكنه انتهى أيضًا بالطلاق.

عقبـــات

وكان أهم ما يعترض سعادة الزوجين المحبين هو أن أشرف بمجرد أن تصل إيران تلقى بنفسها وبكليتها فى الأمور السياسية.. ملكية أكثر من الملك ومهمته أكثر من المسؤولين الفعليين.

ثم هناك الأمور الاجتماعية والنشاط الذى كانت تقوم به أشرف فى هذا المجال وهى كثيرة فعلاً.

وكانت الأزمة الحقيقية الطاحنة هى مغادرة الأميرة أشرف لإيران، مطرودة بأمر الدكتور مصدق، لتعيش فى المنفى.. فى باريس لفترة طويلة، وهى الرحلة التى لم يصحبها فيها زوجها.

هذا من ناحية الأميرة، أما من ناحية زوجها، فكان لديه الكثير من الأعمال التى تشغله.. وتأخذه من حياته العائلية.

الحياة العامة

كانت أكثر الأمور التى تعترض زواج الأميرة أشرف وأحمد شفيق هى انغماس أشرف وحتى قمة رأسها فى النشاط العام السياسى والاجتماعى حتى كان ذلك يبقى لبيتها ولأولادها أقل القليل من وقتها.

والحياة الخاصة جداً

وكان الأهم والأكثر من الحياة العامة التي تشكل وقت الأميرة هو حياتها الخاصة جدًا جدًا، والتي كان الناس يتداولونها وعلى كل الألسنة.

كان الناس يتحدثون عن هؤلاء، السعداء والمحظوظين الذين تهبط عليهم «نعمة»، «حب» الأميرة أشرف لهم، والذين صعدوا سلم المجد بسرعة صاروخية بسبب ذلك.

تحدثوا عن عبدالحسين هاجر أو حسين هاجر الذى كان وزيرًا للبلاط ووزيرًا للاقتصاد ورئيسًا للوزراء.

تحدثوا عن الدكتور إقبال طبيب النساء فى القصر الإمبراطورى.. الذى أصبح وزيرًا للصحة، ثم وزيرًا للداخلية.

وفى هذا تقول الأميرة أشرف فى مذكراتها المنشورة:

«إن الشائعات لاحقتنى طوال حياتى، وأكدت وأصرت على وجود علاقات غرامية بينى وبين كل سياسى عرفته إيران وكل سياسى كانت لى به صلة عمل».

«إن الشائعات قالت: إننى على علاقة غرامية بكل رؤساء الوزراء الذين حكموا فى ظل شقيقى.. ابتدءًا من رئيس الوزراء هاجر وحتى رازم آراه».

دقة.. بدقة

وبلاشك فقد أثرت كل هذه الأمور فى مجريات أمور الأسرة.

ورغم إحساس الأميرة أشرف بالتقصير فى أمورها الأسرية وزوجها.. إلا أنها تشاغلت عنها مستندة إلى أمرين كلاهما أوهى وأهون من الآخر.

كانت تعتقد أن زوجها يعلم أنها فى موقع لا يسمح لها بوقت لأمورها

الشخصية، وبالتالى يقدر هذا الأمر ويحترمه ويحتمل المعاناة من أجلها.

والسبب الثانى الأوهى هو أنهم فى طهران وهو زوج الأميرة القوية، ولن يستطيع، حتى إن هو أراد أن يخونها هناك فى طهران.

ولكنها كانت تشعر أنه يخونها على أية حال ولكنها لم تفاتحه.. تم تحول الشك إلى يقين، حيث جاءًا رجل ذات يوم ليخبرها أن زوجها شفيق على علاقة غرامية بزوجته هو، ومنذ مدة ليست بالقصيرة.

ومن مذكراتها نلتقط بضعة سطور عن هذه الواقعة:

«لا أقول إن قلبى تحطم، لأننى لم أحبه حتى الجنون، ولكننى أحسست بإهانة بالغة، وهذا الشخص الغريب عنى يبلغنى أن زوجى يخوننى».

«حينما واجهت زوجى بأقوال هذا الرجل لم ينف الاتهام، بل أكده فى هدوء، مؤكدًا لى أن هذه العلاقة الغرامية ستستمر».

«لم أفكر فى الطلاق رغم انهيار زواجى.. أصبح زواجنا منظمًا.. شكليًا فقط».

القلق.. بالملايين

وبالمفهوم البسيط لم تكن الأميرة أشرف لتقبل أن يستمر الزواج إلا لأن أمورها الشخصية تقتضى أو تدعو لذلك.

وعلى الجانب الآخر تقول: إنه بالقطع كان لدى الزوج ما يدعوه هو الآخر على أن يحتمل الأمر.

فلابد أن تقول: إن هذه الأمور كانت تثير القلق فى نفسه على الأقل.

نعم كان ذلك يقلق أحمد شفيق فعلاً.

وأضاف إلى تلك الهموم ارتباطها بقوة بحبها العظيم «مهدى بوشر»..

الذى نشأت علاقتها به فى باريس أيام المنفى.

ولكن كل ذلك القلق لم يكن ليشغله عن أعماله الكثيرة وملايينه، ولم يكن ليدعوه إلى سرعة إنهاء هذا الزواج الشكلى.

حتى أنها تقول فى مذكراتها:

«كنت قبل أن أغادر باريس قد اتفقت مع مهدى على أن أطلب الطلاق من شفيق، وأن أتزوجه فى أسرع وقت ممكن».

«حينما بحثت هذه المسألة مع شفيق.. لم يمانع فى منحنى الطلاق فى هدوء.. بشرط أن أنتظر عدة سنوات حتى يكبر الأولاد ووافقت».

كان لديها الأمير شهريار والأميرة آزده أحمد شفيق.

ازدواج

وتضيف الأميرة أشرف، ونأخذ من مذكراتها:

«وصل مهدى إلى إيران بعد عودتى بعدة أشهر، أوضحت له أن علينا أن ننتظر عدة سنوات قبل أن نتزوج، وكان رجلاً عاقلاً وفاهمًا.. ولهذا وافق على الفور».

«لما كانت طهران مختلفة عن باريس، لهذا كان لقائى بمهدى فى طهران محدودًا ومقصورًا على الحفلات الرسمية والمناسبات العائلية التى يحضرها زوجى شفيق».

زواج.. ثالث

قالت أشرف فى مذكراتها:

«أنها سوف تتزوج مهدى بوشر يومًا ما».

وجاء هذا اليوم بعد سنوات سبع من مفاتحتها لزوجها أحمد شفيق فى أمر الطلاق.. قام شفيق بطلاقها.

وجاء الزواج الجديد.. جاء وهى فى الأربعين من عمرها.

تم فى حفل هادئ فى السفارة الإيرانية فى باريس.

وتقول أشرف فى مذكراتها:

«أحسست أنه الزواج الأول».

«رغم هذا كنت أحس أننى لست المرأة التى تدور فى حياتها حول رجل تتعلق به».

«قال مهدى: إنه يقبل هذا الوضع، وأن أيًا منا لن يحاول أن يفرض وجهات نظره على الطرف الآخر».

«وكان زواجًا من رجل رائع كامل من كل الوجوه، وبصورة لم أعرفها من قبل، صحيح أن علاقتنا تغيرت على مر السنين، ولكن فكرتى عنه لم تتغير أبدا».

«خلال سنوات الزواج الأول، حاول زوجى أن يكيف حياته لتناسب حياتى وعملى».

«ولكن محاولات مهدى لم تنجح، أصبح من الصعب عليه أن يتحمل أعباء عملى، احترمته كثيرًا وقدرت متاعبه، لكننى وجدتنى مضطرة، أو عاجزة عن تغيير أسلوب حياتى..»

«بدأ كل منا يعيش حياته المستقلة.. لم يحدث بيننا انفصال.. بل ازدادت شدة الصداقة بيننا».

«كنا نمضى بعض الأوقات معًا».

«وكان كل منا يتصل بالآخر، إذا واجهته مشكلة».

الدعم الشاهنشاهى

وكان من الواضح أن استمرار العلاقة بهذا الوضع لايمكن أن يكون.. العاطفة مهما كانت ضرورة وكان معروفًا أن أصابع الشاه وراء هذا الاستمرار الشكلى على الأقل هو الآخر.

كانت الامتيازات التجارية والصفقات هى وسيلة الشاه فى إقناع الزوج.. تعاقدات.. ملايين كثيرة جاءته من هنا ومن هناك.. يستغرق عدها وقتًا طويلاً، ربما أكثر من الوقت الذى يفتقد فيه زوجته الأميرة، المنشغلة عنه.

سيدة أعمال

ولم يكن هذا الدعم الإمبراطورى لمهدى بوشر خاصًا به وحده، بل حصل عليه كل أزواج الأميرة من قبل.

كان الشاه الشقيق دائما يقدم الملايين مباشرة نقدًا وعدًا، والملايين بطريقة غير مباشرة فى شكل التسهيلات والصفقات التى كانت تيسر لهم.

وكانت هى بالتبعية مستفيدة من هذه الأموال المتدفقة إلى بيتها.

وكانت شريكة للأزواج تقاسمهم أرباحهم ـ وإن أرادت ـ أعمالهم أيضاً.

وذلك طبعا بجانب ما كانت تحصل عليه هى مباشرة من الشقيق، ومن عوائد أملاكها الخاصة.

ولكن كل هذا لم يكن كافيًا فى نظرها فنزلت مباشرة إلى دنيا الأعمال بنفسها طبعًا مستفيدة كشقيقة للشاه بكل التسهيلات التى لايمكن أن يحصل عليها غيرها.

فتاجرت واستوردت، وصدرت..

وكانت لها علاقات تجارية فى معظم دول العالم.

ومهربــة

ولم يقتصر الأمر على التجارة والتسهيلات بل وامتد إلى ما هو مشروع منها وما هو غير ذلك، بل كانت هناك اتهامات كثيرة ومتنوعة المصادر بأن الأميرة أشرف تقوم بنفسها مستغلة مكانتها فى تهريب المجوهرات والأفيون التى اشتهرت إيران منذ القدم بزراعته.

ويقال: إنها كانت تزرع الأفيون فى مساحات شاسعة من أراضيها فى طول إيران وعرضها، وأنها كانت تقوم بنفسها بتهريب هذا الإنتاج الهائل إلى الخارج.

أميرة مفلسة

وبالرغم من كل الملايين التى كانت تتدفق على الأميرة من كل اتجاه، ومن الحل وغير الحل، فإن الأميرة كانت دائمًا وأبدًا مفلسة.

حتى أنها عندما كانت فى باريس ومرض ابنها مرضًا خطيرًا لم تجد ما تعالجه به، ولولا أن تاجرًا إيرانيًا أسعفها بالمال الذى تعالجه به لما أدركته، ولولا أن هذا التاجر اشترط أن يسدد الحسابات فقط، ودون أن يضع أى مبلغ فى يد الأميرة، فربما وجدت هذه الأموال طريقها للضياع فما هذا التناقض.. ملايين متدفقة.. وإفلاس متناه؟!

مقامــرة

السر فى الموائد الخضراء.. موائد القمار

كانت الأميرة مدمنة لعب الميسر، تفرغ على موائده الملايين، حتى

وكأنها محترفة خسارة، وكأنها تجد سعادتها فى إضاعة هذه الملايين.

وكان الشاه يعلم ذلك، ولكنه أبدًا لم يفاتح الأميرة فى ذلك، بل كان دائمًا على استعداد أن يعطيها المزيد من الملايين.

الأميرة أشرف والقصر

سيطرت أشرف على أمور القصر الإمبراطورى، بل القصور الإمبراطورية كلها، كانت تعلم كل شىء فيها، حتى الهمس وكانت توجه كل شىء فيها، حتى أدق الأمور الشخصية للشاه..

وقد رأينا أنها كانت تختار له زوجاته، والويل لمن لا ترضخ، ويمتد الأمر إلى اختيار عشيقات الملك، وهو أمر لم يحدث من قبل فى التاريخ.

الدور السياسى

بعد أن عادت الأميرة أشرف من رحلتها لزيارة الشاه المنفى رضا شاه فى جنوب إفريقيا سنة ١٩٤٤، ألقت بنفسها وبالكامل فى كل الشؤون السياسية فى البلاد، حتى صارت وبشكل فعلى فى أوقات كثيرة هى حاكم إيران.. وهى الشاه الحقيقى.

دور معلن

وقد كان لها دور سياسى معلن فقد سافرت باسم بلادها ومثلت إيران كثيرًا فى مؤتمرات، وحتى فى رحلاتها الخاصة.. كانت دائما تقوم بدور سياسى وباسم العرش الإيرانى.

الدور الأصعب

أما الدور الأهم والأشق فهو الدور غير المعلن لتدخلات الأميرة السياسية، وكان هو الأخطر كما يعلم الجميع على الساحة الداخلية، خاصة

فيما يتعلق بسياسة القبضة الحديدية التى كان الشاه اسما ـ يواجه بها خصومه، ويقمع بها المظاهرات ضده، حتى أن خصومها ـ وربما شعر الشاه نفسه بذلك فى فترات كثيرة ـ اتهموها بأنها كانت سببا رئيسيًا فى ضياع حب الشعب للشاه، وبالتالى ضياع حكمه ولعل هذا ماجعل الشاه.. وهو الذى لم يواجهها أبدًا ـ يقول لها عندما عنفت الاضطريات ضده فى أغسطس ١٩٧٨، وهو يطالبها بمغادرة إيران:

«إنه ليس من الحكمة وجودك هنا، تعلمين أنك كنت مرارًا سببًا فى الهجوم على النظام، إننى أعتقد أنه يجب عليك الرحيل فى الحال».

وعندما عارضه كان الجواب الحاسم: «إننى آمرك بضرورة الرحيل من أجل راحتى.. فى ذلك».

استجابت لضغوط شقيقها، وغادرت إيران، لآخر مرة فى حياتها.

مستهدفة

ولاشك أن هذا الدور السياسى الخفى هو الذى جعلها مستهدفة دائمًا من أعداء النظام لدرجة القتل.

فقد كان أول قرار اتخذه الدكتور محمد مصدق بعد صدور قرار تعيينه رئيسًا للوزراء بساعة واحدة هو طرد الأميرة أشرف من البلد، والتحفظ على أموالها.

وفى سنة ١٩٧٦ تعرضت لمحاولة اغتيال..

فبعد أن فرغت الأميرة من ممارستها اليومية للآفة التى تأصلت فى نفسها ـ لعب القمار ـ فى أحد ملاهى شواطئ «كان» بفرنسا، اتجهت الأميرة فى ساعات الليل الأخيرة إلى منزلها فى صحبة بعض الأصدقاء.

وفى منتصف الطريق اقتربت سيارة مسرعة من السيارة التى تستقلها،

وانحرفت لتسد عليها الطريق، وينزل منها رجلان مسلحان يفتحان النار على الجانب الذى تجلس فيه الأميرة التى جلست بجوار السائق.

ولم تصب الأميرة بخدش واحد بالرغم من قتل الشخص الذى كان يجلس خلفها فى المقعد الخلفى للسيارة، وبالرغم من اكتشاف أن هناك ١٤ رصاصة اخترقت السيارة تجاه الأميرة، وتعرضت لمحاولات أخرى فى نيويورك.

مقتل ابنها

وحتى بعد قيام الثورة الخمينية، ظلت الأميرة مستهدفة فى شخصها وأولادها.

وفى ديسمبر ١٩٧٩ اكتملت أحزانها عندما اغتيل ابنها شهريار فى أحد شوارع باريس.

ولكن هذا لم يكن آخر الأحزان ولا أعظمها.

أعظم الأحزان

فقد جرى الفصل الأخير والأعظم لهذه الأحزان فى القاهرة فى يوليو من العالم الثانى١٩٨٠.

فحينما اشتد المرض بالشاه فى القاهرة فى أواخر يونيه ١٩٨٠ استدعيت الأميرة أشرف لتكون بجوار شقيقها فى هذه الأيام العصيبة من حياته.

أو ربما لتحضر وفاته التى كانت أقرب التوقعات للجميع.

وعندما أسلم الشاه الروح إلى بارئها، كانت أشرف فى الردهة المقابلة للحجرة التى يرقد فيها الشاه، وقد لاحظ الجميع الذهول إلى حد التبلد الذى أصابها، حتى تحجرت الدموع فى عينيها، وأبت أن تنحدر وهى تهذى.

وحتى غادرت القاهرة بعد الجنازة، كانت لاتزال على ذهولها.

وعادت ريما

وعادت الأميرة أشرف بعد طامتها الكبرى بموت شقيقها التوأم الشاه السابق إلى أميركا.

وعلى عكس ما توقع الجميع عادت سياسية نشطة، متآمرة، عادت كما يقول المثل الشعبى.

العرش إلى الأبد

وبعد أن نجحت ثورة الخمينى وخرج الشاه من إيران منفيًا ظلت تدعمه وتدافع عن حق أسرة بهلوى فى العرش وبعودتها إلى الحكم.

بل وحتى بعد أن مات شقيقها الشاه.

لقد كانت سببًا رئيسيًا فى تنصيب ابنه.. «رضا فيروز» وريثًا للعرش.

وأيضًا وراء إعلان هذا الابن عندما بلغ السن التى تؤهله للجلوس على العرش.. إنه قد تولى العرش فى المنفى.

ولاشك أنها وراء كل مسعى قد يعيد أمجاد عرش بهلوى.

ولاشك أنها ستظل كذلك على استعداد أن تفعل أى شىء وكل شىء فى سبيل العرش.

ربما قيل: إنها تفعل ذلك لتعود هى شخصيًا إلى الأضواء والسلطة.

وأيًا كان السبب والمبرر فهى تفعل

■ ■ •

الصدام المروع



■ وجلس على الكرسى وبدأ يصفى حساباته الشخصية القديمة بينه وبين الأسرة الحاكمة، وكان أول قرار هو طرد الأميرة من القصر لينفرد بالشاه ثم كان القرار الثانى.. إشعال النار فى إيران كلها.. كيف؟.

إيران وآيات الله

فى اعتقادى الشخصى أن بداية النهاية الفعلية لنظام الشاه وسقوطه المروع، تكمن فى مسألة واحدة أو حقيقة واحدة وهى استهانته وعدم تقديره السليم لنفوذ رجال الدين وسلطانهم على الجماهير.

وهى حقيقة ما كان يجب أن تغيب عنه، فإن أى متتبع للتاريخ الإيرانى الحديث والقديم على السواء يستطيع بمنتهى البساطة أن يدركها، ولكنها الأقدار.

فقد كان لرجال الدين الملالى (جمع ملا).. آيات الله دائمًا منذ أقدم العصور - وسيظل - التأثير الأعظم على أفكار الشعب والجماهير فى إيران، وبالتالى الدور الأعظم والمؤثر فى مقدرات هذا الشعب ومجريات السياسة فى إيران.

نظرة تاريخية

تميزت الحقبة التاريخية التى سبقت اعتلاء رضا بهلوى للعرش بتدهور الأمور فى كل نواحى الحياة فى إيران.. الاجتماعية الاقتصادية والسياسية.

وتميزت أيضًا بسيطرة رجال الإقطاع ورؤساء القبائل على مقدرات الأمور.

وتميزت كذلك، وهذا هو الأخطر والأهم بدعم من رجال الدين الملالى لكل هذه الأوضاع.

وفى هذا تقول الأميرة أشرف بهلوى.. شقيقة الشاه محمد رضا بهلوى التوأم فى مذكرات واصفة هذه الأوضاع: «إن رجال الدين أو الملا كان لهم نشاط سياسى واسع النطاق، حتى أنه كان من الصعب على رجال الشارع أن يدركوا الفارق بين السياسة والدين، وأين تنتهى السياسة وأين يبدأ الدين».

«وقد شكلوا أحلافًا مع قوى أجنبية.. إن رجال الدين كانت لهم سيطرتهم ونفوذهم على أفكار الجماهير، وكان الملا هو الشخص الوحيد الذى يقرأ ويكتب، وهو الرجل الذى يترجم كلمات الله ويمسك بيديه مفاتيح الجنة.

وكان من رأى رضا بهلوى نفسه «أن قوة رجال الدين وعظم تأثيرهم فى الجماهير لا يمكن فى قوة تمسكهم بالدين، ولكنه نابع من.. جهل هذه الجماهير».

دعم الملكية

والعجيب أن رجال الدين الذين أسقطوا النظام الملكى فى إيران فى أواخر السبعينيات كانوا هم أنفسهم امتدادًا لرجال الدين الذين أصروا فى العشرينيات من هذا القرن أيضا على قيام هذا النظام واستمراره.

فمن الثابت تاريخيًا أنه عندما كانت إيران فى مفترق الطرق السياسية وتدهورت كل الأمور فيها وسقطت أسرة «قاجار» الملكية الحاكمة، وسيطر رضا خان على الأمور، من الثابت أنه اختار النظام الجمهورى كنظام للحكم للخروج بإيران من أوضاعها المتردية.

ولكن رجال الدين عارضوا هذا الاتجاه كشكل للحكم، ورفضوا الأفكار المنادية بالجمهورية.

وعقدوا اجتماعات فى مدينة «قم» المقدسة، وقرروا استمرار الأوضاع السياسية وشكل الحكم وأبلغوا ذلك للرجل القوى المقبل على الحكم.

ولم يكن أمامه إلا أن يرضخ.

فى «قم» المقدسة تقرر استمرار النظام الملكى وفيها نفسها وبعد نصف قرن تقرر إسقاط النظام الملكى.. أى مفارقة تلك؟!.

على أن هذا يقول بحقيقة واحدة واضحة، وهى أن أى صدام مع رجال الدين تكون نهايته دائمًا لصالحهم.

ولكنها الظروف تفرض الصدام، لتقول الأقدار كلمتها.

آية الله كاشانى

لقد كان الصدام الأول الحقيقى فى علاقة الشاه بالملالى.. آيات الله هو الذى جرى بين الشاه وآية الله كاشانى.. أبوالقاسم كاشانى فى الخمسينيات قبيل حكم الدكتور مصدق.

وكان آية الله كاشانى فى ذلك الوقت فى نفس القوة.. ونفس الموقع المؤثر فى الأحداث بنفس القوة التى كان عليها آية الله الخومينى، عندما قام بثورته فى أواخر السبعينيات.

ولكن هدف القلاقل التى قام بها آية الله كاشانى كان محصورًا تعيين الدكتور محمد مصدق رئيسًا للوزراء.. ولم تتعد آماله إلى الشاه.

كاشانى الزعيم

عندما عاد كاشانى إلى إيران لم يكن مجهولاً تمامًا بالنسبة للحركة الدينية، ولكنه لم يكن له طائفة تتبعه مباشرة، وبالتالى لم تكن له سيطرة ولا دور قيادى.

ولكنه بدأ وفى طهران مباشرة يسيطر على فئة معينة، هى التجار حيث المال وهذا أساس ورئيس، وحيث الشباب المتحمس.

ولم يمض وقت طويل حتى كان تجار طهران، وخاصة السوق المركزى للفواكه والخضر جميعًا فى قبضة كاشانى، وتحت سيطرته ويعملون بإشاراته.

ولم يكتف بالفكر السياسى والدينى.

فكون جماعة مقاتلة أوجناحًا عسكريًا لحركته اسمها بالفارسية «تشاصهوكش» وترجمتها «حملة السكاكين».

وبذلك كان فى استطاعة كاشانى أن يقوم بأى أعمال «شغب».

والبرلمان

وصار كاشانى عضوًا فى البرلمان الإيرانى، حملته إليه طائفته الدينية وأنصاره المباشرون.

ثم كان بعد ذلك نائبا لرئيس البرلمان ثم رئيسًا له، وفى مواجهة الشاه مباشرة.

مواجهة

وفى يونيه عام ١٩٤٨ صدر قرار الشاه بتعيين عبدالحسين هاجر رئيسا للوزراء.

وكان الرجل قريبًا من الشاه، حيث كان يعمل وزيرًا للاقتصاد، ووزيرًا للبلاط الإمبراطورى، وصديقًا حميمًا لأشرف بهلوى توأم الشاه التى لم تنف أنها «لعبت دورًا مهمًا فى تعيينه رئيسًا للوزراء».

وكان هذا التعيين على رغم إرادة الدكتور مصدق الذى كان يطمع أن يكون هو صاحب هذا الموقف، وبالتالى على رغم إرادة آية الله كاشانى الذى يؤيد مصدق ويدعمه.

وخرج أنصار الكاشانى وأتباعه فى مظاهرات ضد عبدالحسين قُتل فيها الكثيرون ولم تستقر الأمور.

وفى ربيع عام ١٩٥٠، وبينما كان رئيس الوزراء يهم بدخول أحد

المساجد للصلاة إذ برجل ذى لحية كثيفة، يخترق الصفوف ويطعنه بخنجر طعنة قاتلة.

ونُقل رئيس الوزراء عبدالحسين إلى المستشفى ليسلم الروح إلى بارئها بعد وقت قصير.

ولم يقبض على القاتل وإن كان من المؤكد أنه من «حملة السكاكين» أتباع كاشانى.

ورئيس وزراء آخر

بعد قتل عبد الحسين أصدر الشاه قرارًا فى يونيه ١٩٥٠ بتعيين الحاج على رازم آراه رئيسًا للوزراء، ولم يكن من رجال السياسة، ولكنه كان ضابطًا وإداريًا ناجحًا، وكان أيضا ـ وهذا شىء مهم ـ ممن رفعتهم الأميرة أشرف.. توأم الشاه إلى سلم المجد.

ولكن رئيس الوزراء الجديد.. وللمرة الثانية لم يكن يحظى برضاء الدكتور مصدق وبالتالى آية الله كاشانى.

كان الدكتور مصدق يرى ضرورة تأميم البترول، وكان الشاه أيضاً ولكن مصدق كان قد جعل قضية التأميم فى قبضته، وحرك بها مشاعر الجماهير.

وعندما اتجه رئيس الوزراء الجديد للتفاوض مع شركات البترول ليحصل على نسبة وصفوه بأنه عميل للشركات الاجنبية.

وتوصل رازم اراه فعلاً إلى اتفاق مع شركة البترول تحصل إيران بمقتضاه على ٥٠٪ من عوائد بترولها.

ولكن كاشانى.. آية الله الزعيم الدينى رئيس البرلمان أصدر فتوى شرعية بأن اتفاقيات البترول الإيرانية تتعارض ونصوص القرآن.

وقال كاشانى: إن أى شخص يعارض تأميم البترول الإيرانى هو «عدو للإسلام».

وباتت المسألة واضحة.. إنه تقرر التخلص من رئيس الوزراء وأنه لم يبق إلا التنفيذ.

وفى إحدى المناسبات تحديداً فى مارس ١٩٥١ كان على رازم آراه يؤدى الصلاة فى أحد مساجد طهران، وتقدم منه شخص ذو لحية كثيفة ليرديه قتيلاً بأربع رصاصات.

وكان القاتل تاجرًا، يدرس القرآن، وعضوا فى منظمة «فدائيان إسلام» الدينية.

ولم يقدم الجانى للمحاكمة، بل عُومل كبطل قومى وظهرت صوره فى الصحف وآية الله كاشانى يربت على ذقنه الطويلة ويحييه على جهوده فى اغتيال رئيس الوزراء.

ونقلت الصحف تصريحًا لآية الله كاشانى على الحادث يقول فيها: إن أمثال هذا الرجل مثواهم الجنة.

اضطرار.. لمصدق

وبعد أيام قلائل من اغتيال رازم آراه أصدر الشاه قرارًا آخر بتعيين حسين علاء رجل السياسة كرئيس للوزراء.

وقامت الاضطرابات والقلاقل التى وصلت إلى رئيس الوزراء الجديد الذى أُصيب بطلقات رصاص فى رأسه، وآثر السلامة والانسحاب حيًا.

واضطر الشاه أن يصدر قرارًا آخر وبعد أيام فى ابريل ١٩٥١ بتعيين الدكتور مصدق رئيسا للوزراء.

وحققت ثورة الإمام آية الله كاشانى أغراضها.

وجلس مصدق على كرسى الوزارة.

فماذا فعل مصدق؟

لقد بدأ وفورًا بعد ساعة واحدة من القرار بأن يصفى حسابات شخصية قديمة بينه وبين أسرة بهلوى.

وكان أول قرار له خلال هذه الساعة هو طرد الأميرة أشرف بهلوى.. توأم الشاه ودعامته لينفرد به.

وكان قراره تأميم البترول بمثابة اشتعال النار فى إيران كلها وسمى «بثورة مصدق».

ولم تنطفئ هذه النار إلا بإبعاد مصدق.

■ ■ ■

مصدق الثائر والعداء الموروث



■ ■ وكان يكن عداءً «موروثًا» للأسرة الحاكمة وأُلقى القبض عليه بتهمة التآمر على العرش وتدهورت صحته فى السجن.. فهل أُفرج عنه أم ظل خلف الأسوار؟.

الأمير الثائر والعداء الموروث

كان مصدق من الزعماء القلائل الذين يستطيعون التأثير على عواطف الجماهير، كان عبقريا فى تناول أموره، كان مثقفًا دارسًا.. كان خطيبًا مفوهًا، وكان - وهو الأهم من كل ما تقدم - ظاهرة فى التاريخ السياسى والاقتصادى لإيران.

وكان الدكتور مصدق ابنًا لأحد أمراء أسرة «قاجار» التى حكمت إيران قبل أسرة بهلوى، الذى أقصاها عن الحكم ١٩٢٥.. وكان والده وزيرًا للاقتصاد فى عصر الملك أحمد شاه.. آخر ملوك أسرة قاجار التى أسقطها رضا بهلوى.

ومن هنا كان العداء الموروث لأسرة بهلوى الذى كان ظاهرًا دائمًا فى تناول أموره السياسية.. وحتى الأيام الأخيرة من حياته.

وقد مكن ثراء والد مصدق من تعليمه تعليمًا جيدًا فى سويسرا وفرنسا.

معارض

وقد بدأ مصدق حياته السياسية نائبًا فى البرلمان عام ١٩٢٥ ليعارض الشاه رضا بهلوى، مدفوعًا بما سبق بيانه من عوامل أسرية؛ حتى أنه ألقى القبض عليه بتهمة التآمر على العرش وتدهورت صحته بشدة فى السجن مما دعا الأمير محمد رضا بهلوى.. الشاه فيما بعد أن يتدخل لدى والده رضا بهلوى، ويستطيع بعد مجهود كبير الإفراج عنه.

وقد كانت مسألة إخراجه من السجن هذه موضع شكر منه للشاه الابن، ولكنها لم تغير شيئًا فيما فى دخيلة نفس مصدق من كراهية لأسرة بهلوى.

وخلال السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية أوقف مصدق من نشاطه

السياسى، ولكنه عاد سنة ١٩٤٤ ليرشح نفسه فى البرلمان، ويصبح أحد أعضائه.

قانون البترول

واستطاع مصدق أن يحصل على موافقة البرلمان على اقتراح تقدم به، ينص على ضرورة عدم تنفيذ الحكومة لأية اتفاقية بترولية مع أى جهة إلا بعد الحصول على موافقة مسبقة من البرلمان.

واستطاع مصدق هو وثمانية من النواب أن يكوِّن «الجبهة الوطنية»، وأن يسيطر بهم على المجلس بالكامل خلال بضعة أشهر.

سيطرة

فطبقًا للدستور الإيرانى فإن موافقة أغلبية الثلثين من أعضاء البرلمان ضرورية لأى عمل، كما كانت موافقة ثلاثة أرباع النواب ضرورية لإصدار أى قانون جديد، ومن هنا كان فى استطاعة القوى السياسية الصغيرة أن تعرقل الحركة التشريعية بمجرد الامتناع عن التصويت.

صدام سابق

وقبل هذا التاريخ بسنوات كان الدكتور مصدق قد استُدعى لاجتماع مع الأميرة أشرف.. توأم الشاه.. القوية المسيطرة لبحث بعض الأمور.

ولعلمه أنها صاحبة قرار أساس فى كل الأمور، قال لها «يمكن أن يحدث أى شىء إذا سمحت له أنت أن يتم».

ثم انفجر مصدق بعدد الأخطاء التى وقع فيها والدها الشاه الراحل، وشقيقها الشاه الحالى.

طرد بطرد

وكانت اللهجة والموضوع من الأمور التى لم تعتدها الأميرة شبه الحاكمة، أو الحاكمة الفعلية المستبدة، فلم تتمالك أعصابها... فاستدعت خادمًا وطلبت منه إخراج مصدق من المنزل.

وبعد أن أصبح مصدق رئيسا للوزراء وبعد ساعة واحدة من صدور قرار تعيينه، بعث للأميرة أشرف برسالة يطلب منها مغادرة البلاد.

التأميم

وبعد تعيين مصدق رئيسًا للوزراء تقدم مباشرة بمشروع التأميم فى إبريل عام ١٩٥١، وصحب ذلك جو من الإثارة الشعبية والكلام عن العوائد والثروات البترولية، حتى ظن الناس أن كل هذه الثروات والأموال سوف تنهال عليهم بمجرد التأميم ولكن الذى حدث هو العكس.

كان نصيب إيران حينئذ من عوائد النفط هو ١٦ مليون جنيه استرلينى، وهو مبلغ - بالنسبة لإيران ودخلها القومى - خرافى فهو يمثل نصف الميزانية العامة للدولة، ولكن حق الشركات المنتجة كانت خمسة أضعاف هذا الرقم.

تضامن

والذى حدث أن الشركات البترولية العالمية - وكانوا يطلقون عليها اسم «الشقيقات السبع» والتى كانت تسيطر على البترول فى العالم إنتاجًا وتسويقًا - تضامنت مع شركة البترول البريطانية الإيرانية التى أممت حقولها فى طهران، فتمت مقاطعة عالمية للبترول الإيرانى، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى زادت هذه الشركات من إنتاج حقولها فى كل من السعودية والكويت والبحرين والعراق، حتى تصبح هناك وفرة فى سوق البترول فلا يلجأ إلى إيران مشتريًا لبترولها.

انخفاض الإنتاج

وتزامنت هذه المقاطعة مع نقص خطير فى الإنتاج، فعندما أمم مصدق النفط، طرد الخبراء الإنجليز من الحقول استنادًا إلى أن تعمل هذه الحقول بمساعدة الفنيين الأمريكيين، ولكن هذا لم يحدث.

ومواجهة عسكرية

هذا بالاضافة إلى ما أعلنته إنجلترا من أنها ستواجه بالقوة العسكرية أية محاولة لتصريف النفط الإيرانى باعتبار أن هذا النفط هو للشركة البريطانية التى كانت تعمل فى الحقول الإيرانية، وأن الحكومة الإيرانية مغتصبة لهذا البترول وبالتالى فلبريطانيا الحق فى الاستيلاء على هذا النفط بالقوة.

استيلاء

وقد كسرت إحدى الشركات الإيطالية البترولية الصغيرة هذا الحصار المضروب للنفط الإيرانى واشترت كمية منه، وأرسلت ناقلة بترول لنقل هذا النفط.

وكان هذا تحديًا وقطعًا واختبارا للمقاطعة.

وقد تصدى السلاح الجوى البريطانى للناقلة، واستولى عليها بحمولتها معلنًا أن الشحنة مملوكة للشركة البريطانية الإيرانية، وهى شركة إنجليزية تم تأميمها على خلاف القانون.

وبعد هذا الحادث توقفت عمليات البيع تمامًا.

انهيار السعر

وإزاء ذلك تم تخفيض سعر البترول الإيرانى من دولار وسبعين سنتًا

للبرميل إلى تسعين سنتًا فقط، أى أصبح بنصف ثمنه تقريبًا، ولكن لا فائدة.

وتوقفت الحركة فى حقول النفط الإيرانية تمامًا.

شكاوى دولية

وتقدمت شركة البترول البريطانية ـ الإيرانية باعتبارها شركة إنجليزية الجنسية بشكوى ضد إيران التى أممت حقولها.

وكان قرار المحكمة أن طلبت من الأطراف المعنية احترام الوضع القائم لحين الوصول إلى تسوية نهائية.

وبمعنى آخر أن المحكمة عارضت القرار الذى اتخذ فى إيران بتأميم الشركة ودعت الطرفين إلى الدخول فى مفاوضات لتعديل الشروط.

وحاولت أميركا التوسط فأرسل الرئيس الأميركى هارى ترومان مبعوثه أفريل هاريمان إلى طهران، فلم يصل إلى نتيجة مع المتهورين فى إيران.

وكانت هذه الزيارة من دواعى زيادة الشعور المعادى لأميركا فى إيران وكانت بريطانيا قد تقدمت بمشروع قرار إلى مجلس الأمن يلزم إيران بقبول حكم محكمة العدل الدولية فى لاهاى.

أمام مجلس الأمن

ووصل الكتور مصدق إلى نيويورك فى أكتوبر ١٩٥١ ليلقى كلمة إيران أمام مجلس الأمن، ظل يخطب حتى أوشك على الانهيار وفقدان التوازن، ولكنه عاد إلى إيران دون الوصول إلى اى حل رغم توفيقه فى عرض القضية.

واستمر الحصار وتوقفت الحقول وتوقف الدخل.

انهيار اقتصادى

وأصبح الوضع فى إيران فى شبه انهيار أو إفلاس فقد توقفت

الإيرادات والخزينة خاوية، والحكومة عاجزة عن صرف المرتبات للموظفين المدنيين.. وأمكنها بالكاد أن تدفع جزءًا ضئيلاً من مرتبات رجال القوات المسلحة، حتى لايثوروا ضدها.

وكان الحل الاقتصادى الأسوأ وهو إصدار أوراق نقدية دون غطاء وبكميات كبيرة يعنى فى أبسط نتائجه تضخم كبير.

رشاوى

وحتى ينصرف الناس عما فيه الوضع الحكومى من حرج ومشكلة اقتصادية حادة نشر مصدق أسماء السياسيين الإيرانيين الذين حصلوا على أموال وهدايا غير مشروعة طبعًا من شركة النفط البريطانية الإيرانية.

وغطت الفضيحة السياسية إلى حد ما على الكارثة الاقتصادية التى تعانيها الحكومة وامتصت إلى حد ما جزءًا من غضب الجماهير.

سلطات استثنائية

وحتى يستعيد مصدق شعبيته ويُحكم قبضته على البلاد ذهب إلى البرلمان فى يوليو ١٩٥٢ وأعلن أنه سيحل جميع مشاكل إيران الاقتصادية، إذا ما حصل على سلطات مطلقة لمدة ستة أشهر، وهذا يعنى ببساطة رفع يد الشاه عن كل شىء، وأن يدبر مصدق أموره ليخلص من الشاه نهائيًا خلال هذه المدة.

ورفض البرلمان بتأثير من الشاه ورجال القصر.

وكان مصدق يستطيع أن يستمر فى الحكم دستوريًا، ولكنه استقال وهو يعلم أن القوى المساندة له سوف تعيده إلى موقعه بعد قليل.

قوام السلطنة

عين الشاه قوام السلطنة بعد استقالة الدكتور مصدق، رغم ما بين قوام السلطنة والشاه.

لقد كان الشاه يرى فيه الرجل القوى الذى يمكنه الضرب بيد قوية فى وسط هذه المشاكل، ولكن هذا كان تاريخًا.. فقوام السلطنة قد هرم وضعف ومرض، ولم يعد الشخص الذى يستطيع أن يواجه الموقف المتأزم.

عودة مصدق

وعلى كل فإن الجماهير الثائرة لم تعط الفرصة لأى مسؤول للتصرف فقد تظاهر الألوف مطالبين بإقالة قوام السلطنة وعودة مصدق بل وأحرق المتظاهرون منزل أحمد قوام السلطنة.

واضطر الشاه أن يعيد مصدق إلى رئاسة الوزارة خاضعًا لكل مطالبه.

وعاد مصدق أقوى كثيرًا مما بعد، ولم يعد يخفى أغراضه ومنها خلع الشاه.

الملك السجين

وكان الشاه فى قصر... ممنوع تقريبًا من مغادرته على الأقل خوفًا من الجماهير الثائرة فى الشوارع، ووضعت تليفوناته جميعًا تحت الرقابة، ودس الجواسيس الموالين لمصدق بين رجال الحرس الإمبراطورى، كما طلب مصدق من الشاه أن يتخلى عن منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة، حتى يرفع يده نهائيًا عن الجيش، حتى لا يكون وسيلة لمواجهة مصدق.

وعندما رفض الشاه التخل عن هذا المنصب، لأنه ببساطة صلاحية تضاف دائمًا وعادة لمنصب رئيس الدولة.. طلب منه مصدق أن يغادر البلاد.

ويبدو أن طلب مصدق صادف تفكيرًا لدى الشاه بمغادرة البلاد، فقدهم فعلا أن يفعل ذلك.

لولا تغيرات حدثت فى المجال السياسى داخليًا وخارجيًا.

سحب تأييد

كان مصدق فى سعيه إلى السيطرة على الأمور فى إيران، قد ضمن تأييد التيار الإسلامى، حتى أصدر آية الله كاشانى من الفتاوى الذى تدعم موقفه وتقوى من شأنه فى مواجهة أى سياسى أو مسؤول.

وما دام قد ضمن التيار الإسلامى، فليحاول الحصول على تأييد باقى التيارات السياسية الأخرى، رغم أن تأييد التيار الإسلامى وحده كان كافيًا.

وفى الحقيقة.. لم يكن هناك أى تيار سياسى منظم على الساحة الإيرانية منذ فترة طويلة، وحتى ذلك الوقت سوى التيار الشيوعى المتمثل فى حزب تودة.

ولم يكن الحزب جيد التنظيم فقط، بل أيضًا جيد التمويل.

فاتجه مصدق بكليته إلى اليسار، ولم يكن ذلك خافيًا على أحد.. لا فى الداخل، ولا فى الخارج.

ومن هنا رأت الحركة الإسلامية أنها يجب أن تعيد النظر فى تأييدها المطلق لمصدق، بل بالتدريج بدأت تسحب هذا التأييد وبالتدريج أيضًا بدا تعلن معارضته.

ولأول مرة منذ وقت طويل، سارت مظاهرات إسلامية ضد مصدق وهذا يعنى بالتحديد اتجاهها إلى الشاه.

فقد الأصدقاء

وكانت أميركا ترى فى مصدق ـ على اعتبار أنه وطنى، إيرانى، مسلم ـ رجلاً قويًا يمكن أن يواجه الشيوعيين.

أما الآن فقد ألقى بنفسه فى أحضان الشيوعيين، فلابد أن تختلف النظرة.

مواجهة

وكانت المظاهرات التى قام بها الشيوعيون فى أول مايو ١٩٥٣ هى القشة التى قصمت ظهر البعير ـ كما يقولونَ.

فقد تجمع الآلاف منهم أمام البرلمان فى مظاهرة ضخمة، وكانت الهتافات معادية للغرب لأول مرة.

«عاشت الصين وكوريا»..«تسقط أميركا»..«الموت لبريطانيا»..

«عاش نضال الشعب السوفييتى» وغير هذا، وعلى شاكلته الكثير.. وكان هذا يعنى تحولاً أساسيًا فى كنة النضال الذى كان يتزعمه، ولم يكن فى وسع أميركا أن تنتظر حتى تسقط إيران سياسيًا داخل فلك الاتحاد السوفيتى ولابترولها.

وقرر الغرب التدخل، وكانت عملية «أجاكس» التى نفرد لها صفحات خاصة، لنستمر فى استعراض حياة مصدق ونلقى نظرة على الفصل الأخير منها.

محاكمة

نجحت العملية «أجاكس» التى خطت لها المخابرات الأميركية والإنجليزية معًا، واعتلى الجنرال زاهدى كرسى رئاسة الوزارة، وقبض على

مصدق وعاد الشاه المطرود.. أو الهارب خارج إيران.

وقدم مصدق إلى المحكمة..

ودافع مصدق عن نفسه خمس ساعات كاملة، تخللها بكاء ونحيب وإغماء وهجوم على القضاء، واتهامات وإهانات لممثل الادعاء وللشاه نفسه.

وفى النهاية..

أصدرت المحكمة حكمًا بإدانة مصدق وسجنه ثلاثة أعوام.

وخفض الشاه الحكم بالسجن إلى النصف.

وخرج مصدق بعد تنفيذ الحكم إلى الريف، حيث عاش واعتزل السياسة وقضى باقى حياته فى الظل.

وتوفى عام ١٩٦٦.. بسرطان فى الحلق.



العملية «أجاكس»



■■ واستخدمت المخابرات البريطانية والأمريكية الأميرة فى تنفيذ هذه العملية الجريئة الخطيرة فهل حققت أهدافها؟ وماذا كانت نتائجها؟.. ولصالح من؟!.

العملية اجاكس

كان أول قرار اتخذه الدكتور مصدق بعد أن أجبر الشاه على تعيينه رئيسًا للوزراء، وبعد ساعة واحدة من توليه منصبه طرد الأميرة أشرف بهلوى.. توأم الشاه والمرأة القوية المتآمرة من إيران.

وكان إبعاد الأميرة أشرف بمثابة نزع السلاح من الشاه أو بمعنى أكثر وضوحًا بمثابة خلع أسنان الحية، فإن هى انقضت بعد ذلك فلن يكون ذلك شيئًا ذا بال.

وكان القرار التالى هو تأميم البترول.

وأقام القرار الدنيا، والتهبت الأمور فى طهران وإيران والدنيا كلها والرجل الضعيف جسديًا.. القوى الإرادة مصدق لا يأبه بشىء.

ولم يكن الغرب ليسمح بحرمانه من بترول إيران، واستمرار مصدق.. يعنى هذا بالتحديد، وهذا أهم مافى الأمر.

فليكن إذن القضاء على مصدق.

ولكن كيف؟! والشاه وسيلتهم فى تنفيذ ما يريدون.. محاصر، أو شبه محدد الإقامة.. فى قصره الإمبراطورى فى طهران.. لاحوال له ولاقوة.. والعرش يترنح من تحته.

خطة

وأجابوا على السؤال بوضع خطة أعدت مسودتها المخابرات البريطانية، وجرت حولها مشاورات واجتماعات، آخرها الذى عقد فى مكتب الخارجية الأميركى آنذاك جون فوستر دالاس.. فى يونيه ١٩٥٣ وحضره الكبار من المسؤولين المدنيين والعسكريين والدبلوماسيين ليضعوا الخطة بشكلها النهائى.. لترفع إلى الرؤساء.

وكان الدور الرئيس فى هذه الخطة، أو الجزء العملى والرئيس منها يجب أن يتم فى طهران، وباشتراك الشاه شخصيًا.

إن المسألة تحتاج إلى شخص يقوم بهذه المهمة الانتحارية، واهتدوا إلى بغيتهم.. الأميرة أشرف توأم الشاه.. المنفية فى باريس.

وكانت عندها الإجابة.. ونلتقطها نحن من مذكراتها، وعلى لسانها.

اتصـــال

«فى صيف عام ١٩٥٤ اتصل بى فى بيتى فى باريس شخص إيرانى.. أعرفه جيدا، رجل مهم، ذو صلات واسعة فى المجالات الدولية، يحمل جوازى سفر، أحدهما إيرانى والثانى أميركى، وقال إن بريطانيا وأميركا أقلقهما ما يحدث فى إيران وأنهما وضعتا خطة لحل المشاكل لصالح الشاه، وأن علىَّ أن أساعد فى هذه الخطة من أجل الشاه».

«فوافقت»

موافقــة

وقال لها الإيرانى: إن التفاصيل سيقصها لها رجلان.. أميركى وإنجليزى إذا قبلت الالتقاء بهما.. فوافقت أيضا.

وبعد ٢٤ ساعة تلقت أشرف اتصالاً هاتفيًا ومن شخص أميركى، قال لها: إنه صديق الرجل الإيرانى الذى اتفق معها وأنها مطلوبة للقائه عصر ذلك اليوم نفسه فى « مطعم» بعيد عن قلب باريس.

وفى المكان المحدد وجدت أشرف فى انتظارها الرجل الذى اتصل بها وبرفقته آخر، قدما نفسيهما للأميرة المتعطشة لمعرفة المزيد من التفاصيل.

فوجئت بالأميركى يقول لها: إنه الممثل الشخصى لرئيس الوزراء

الإنجليزى ونستون تشرشل.

وهناك أوضحا لها أنهما يبحثان عن طريقة لنقل رسالة معينة لشقيقها الشاه، وأنهما يبحثان عن رسول مؤتمن.. لا يبوح بالسر أبدًا. حتى أنهما لا يستطيعان إرسال تلك الرسالة عن طريق السفراء فى طهران.

وقبل أن تذهب سألها الأميركى: إذا كان لها صديقة فى إيران تثق فيها، فأعطته اسم صديقة معينة.

وتم الاتصال بهذه الديقة بشكل ما، لإخبارها بأن الأميرة أشرف ستكون فى طهران وتخبرها بالترتيبات.

وكان ذلك هو آخر مراحل الإعداد للرحلة الخطرة.. الخطيرة.

سفر

وجاء يوم السفر، وفى المطار تقدم منها حمال وتناول منها الحقيبة وطلب منها أن تتبعه.

ووجدت أشرف نفسها وسط حراسة سرية مشددة، لاحظها بعض المسافرين، مما أثار فضولهم لمعرفة هذه الشخصية التى تسير وسط هذه الحراسة.

واقتادها الحمال إلى سيارة، توجهت بها إلى الطائرة مباشرة ودون أية إجراءات سفر كالمعتاد، بعد أن تسلمت من الرجل الأميركى المظروف المغلق الذى كان عليها أن تسلمه للشاه.

وبعد أن حلقت الطائرة، لاحظت أشرف أن هناك رجلين يجلسان إلى جانبها بانتباه شديد ربما لحراستها أو لحراسة المظروف.

وأخيرا فى طهران

وخلال الساعات الثمانى التى استغرقتها الرحلة حطمت الهواجس والأفكار رأسها، وعلى سلم الطائرة كانت ترتعد حقيقة.. وبعنف، تجول بعينيها المرهقتين الخائفين فى أرجاء المطار.. كيف تخرج؟ أين تذهب؟ و؟ و؟.

وأخرجها من كل هذا وقوع بصرها على صديقتها التى اندفعت فى اتجاهها، وأمسكت بذراعها وقادتها خارج المنطقة.

وفى ركن بعيد كانت السيارة التى تخطت كل الإجراءات الرسمية والنظم فى المطار لتحملها إلى خارجه.. إلى منزل أخ غير شقيق لها.. فيلا داخل قصر سعد أباد..

مواجهـــة

وقبل أن تستريح الأميرة من إرهاق السفر الطويل، وبعد نصف ساعة فقط من وصولها، دخل أحد الخدم مسرعًا ليبلغها أن الحاكم العام ـ حسب قانون الطوارئ ـ لطهران يطلب مقابلتها وعلى الفور.

وتقول الأميرة أشرف فى مذكراتها: «وطلبت أن يدخل، ودخل وتقدم لتحيتى وهو يقول: يا صاحبة السمو.. لقد علم رئيس الوزراء «يقصد الدكتور مصدق» نبأ وصولك إلى طهران وطلب على الفور من طائرة إيرفرانس التى أقلتك إلى طهران أن تنتظر حتى تخرجى عليها.. وفورًا».

وتضيف الأميرة وصفًا لخواطرها فى هذه اللحظة..

«الآن.. وبعد أن وصلت فعلاً إلى طهران، وأوشكت على أن أنفذ المهمة التى كلفت بها، يأتى هذا الرجل بهذا النبأ المزعج».

«كنت مصرة على الا أغادر طهران قبل أن أسلم المظروف الذى حملته، لقد قبلت المهمة، رغم كل مخاطرها ولابد أن تتم»

«وقلت للحاكم العسكرى على الفور: قل لرئيس وزرائك أن يذهب إلى الجحيم.. إننى إيرانية، وسأبقى فى إيران أى فترة تحلو لى، إنها بلدى وهذا حقى ولكننى جئت فقط لتدبير بعض النقود لعلاج ابنى، ونفقات المستشفى»

«إذا أراد أن يقبض على فليفعل ذلك، ولكنه لايستطيع ببساطة هكذا أن يطلب منى مغادرة البلاد، دون أن أدبر أمرى».

ووجد الحاكم العسكرى نفسه غير قادر على الرد، فانصرف ولكنه لم يلبث أن عاد مرة أخرى بعد ساعة واحدة ليقول:

- لقد نقلت رأيك لرئيس الوزراء، وقد وافق على منحك إذنا بالبقاء فى إيران لمدة ٢٤ ساعة فقط.. ليس إلا.

وتمت المأمورية

وتكمل أشرف:

«وفى اليوم التالى أبلغنى أحد الخدم أن الإمبراطورة ثريا ستحضر إلى حديقة القصر فى ظهر ذلك اليوم».

«وبدأت أنظر إلى النافذة أترقب حضورها، حتى إذا ما لمحتها تدخل الحديقة أسرعت نحوها، وناولتها المظروف وعدت إلى الداخل».

وهكذا فبالرغم من أن مصدق جعل كل همه الا تقابل أشرف شقيقها الشاه، إلا أنها قابلته بالفعل فى هذه اللحظة، وأتمت مأموريتها.

أيام فى طهران

بقيت الأميرة أشرف بعد ذلك فى طهران لمدة عشرة أيام..

ثم توجهت إلى المطار فى حراسة عسكرية مشددة، عائدة إلى المنفى فى باريس.

الشاه... هاربًا

وبعد أيام قلائل من انتهاء مأمورية الأميرة أشرف فى طهران أصدر الشاه محمد رضا بهلوى قرارًا إمبراطوريًا بعزل مصدق عن رئاسة الوزراء وتعيين الجنرال فضل الإله زاهدى بدلاً منه.

وأرسل الشاه بهذا الأمر مع قائد الحرس الإمبراطورى الكولونيل نعمة الله ناصرى، ولكن مصدق اعتقل الكولونيل الرسول، وأعلن بيانًا تناقلته أجهزة الإعلام المحلية والعالمية، بأن الشاه قام بانقلاب فاشل، وأنه على أثر هذا الفشل غادر شاه إيران والملكة ثريا البلاد هاربين فى طائرة صغيرة خاصة بالشاه يقودها بنفسه من منطقة على بحر قزوين، حيث كان يقيم هو والملكة ثريا تحسبًا للظروف وأنهما قصدا بغداد.

ثم ذكرت أجهزة الإعلام بعد ذلك أن الشاه والإمبراطورة قد غادرا العاصمة العراقية بغداد، حيث وصلا إلى روما.

اضطرابـــات

وبعــد يومـين كـانت إيران كلهـا تغلى، وخـاصــة طهــران وزعت آلاف المنشورات تقول: إن مصدق هو صاحب الانقلاب، وأنه كان يخطط لخلع الشاه، وسارت فى شوارع طهران المظاهرات، والمظاهرات المضادة.

وأن أفراد الجيش نزلوا إلى الشوارع يحملون صور الشاه.. هاتفين بحياته.

وأن وهو الأهم من كل ذلك أن الجنرال زاهدى خرج من مخبئه واسترد السلطة.

وعاد الشاه

وباسترداد زاهدى للسلطة كانت ثورة مصدق بالفعل قد أُخمدت، وعاد الشاه إلى إيران.

وأخيــــرا

وفى مكان آخر يبعد كثيرًا عن طهران.

فى العاصمة الأميركية واشنطن، وفى العاصمة الإنجليزية لندن كان تبادل للتهانى بنجاح العملية أجاكس.

وفى مكتبه، كان دالاس وزير الخارجية الأميركى يضرب يديه فى سرور وسعادة ويقول: «هكذا إذن تخلصنا من هذا المجنون: مصدق».

■ ■ ■

«السافاك» والعرش



كانت الأحداث شديدة الوقع على الشاه وخرج منها وهو مقتنع بأن يكون الإمبراطور الحاكم هو مصدر القوة الحقيقية، وقرر إنشاء هذا الجهاز اللعين، وكان هدفه هو حماية العرش، فهل حمى هذا الجهاز العرش أم هوى به؟.

السافاك

كانت السنوات التى شهدت أزمة مصدق أو ثورة مصدق شديدة الوقع على الشاه.

وخرج منها وهو مقتنع تمامًا. بضرورة أن يكون الإمبراطور الحاكم فى إيران هو مصدر القوة الحقيقية، والوحيدة فى البلاد.

ويقر جميع من كان قريبا من الشاه أنه خرج من أزمة مصدق هذه وهو أكثر صلابة، والأهم من ذلك أكثر اتجاهًا إلى العنف.

ومن هنا كان قرار إنشاء «السافاك».. البوليس السرى الإيرانى بدعوى معلنة، وهى القضاء على الشيوعية التى تفاقمت فى البلاد.

وبفرض حقيقى وأصلى غير معلن وهو حماية العرش، وأن يكون يد الشاه القوية التى يضرب بها بقسوة شديدة أينما، ووقتما أراد.

وقد ولد «السافاك» فى أحضان وكالة المخابرات الأميركية، والمباحث الفيدرالية الأميركية، وجهاز المخابرات الإسرائيلى الموساد.

وقد التزم «السافاك» فى أول عهده بالفرض المعلن، وقام الجنرال تيمور بختيار أول رئيس للجهاز.. وقد كشف عدة خلايا.. بكشف عدة خلايا شيوعية فى الجيش الإيرانى.. هو الأمر الذى كانن إهماله لابد وأن يؤدى إلى حدوث انقلاب شيوعى فى إيران.. ومجىء حكومة شيوعية، وبذلك تدور إيران فى فلك الاتحاد السوفييتى.

ثم صارت مهمة «السافاك» بعد ذلك.. منع وجود معارضة ولو بسيطة للشاه، وسعى إلى إيجاد من يقولون نعم.. ونعم فقط، أما هؤلاء الذين يعارضون ولو فى شكل نصيحة فعليهم أن يذهبوا بعيدًا أيا كان موقعهم من المسؤولية، وإذا لم يتم ذلك طواعية تم بوسائل أخرى.

شهادة أميركية

وهناك شهادة أميركية وثقها فى كتابه وليام سوليفان.. آخر سفير أميركى فى إيران قبل الثورة والذى عاصر أوقاتها الصعبة والعصيبة، وبل شارك فى أحداث الفصل الأخير من مأساة الشاه...

«إنه كما هو معروف فلم يكن الشاه يعتمد فى حماية سلطته على قواته المسلحة وحدها، وإنما كان يعتمد أيضًا على قوة مخابراته التى عرفت باسم «السافاك».

وطورت هذه المنظمة وسائل التعذيب والإرهاب الخاصة بها والتى استفادت من تراث فارس.. موغل فى القدم.

نماذج

كل من تكلم عن «السافاك» لم يجد له شبيهًا فى تاريخ المخابرات والشرطة السرية سوى «الجستابو» الألمانى الشهير بكل أساليبه الوحشية المتشابهة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، شهدت الساحة الداخلية فى إيران علامات دموية، من أعمال «السافاك» على مسيرة الأحداث.

ففى يونيه ١٩٥٩ أضرب ٣٠ ألف عامل فى مصانع الطوب التى ليست لها أية صلة بالحكومة من أجل شروط عمل أفضل وفتح رجال «السافاك» النار ومباشرة على تجمعات العمال المضربين.

وكانت الحصيلة مئات الجرحى و ٥٠ قتيلاً فقط.

وفى ديسمبر من نفس العام أضرب طلبة المدارس وقتل رجال «السافاك» فى المواجهة معهم ٨٠ طالبًا واعتقل ٢٦٠ طالبًا كان الموت أرحم لهم بكثير، مما حكوا من تعذيب لاقوه على أيدى «السافاك» وجرح عشرات

آخرون من الطلبة.

أما فى ثورة ١٩٦٣ حيث واجه «السافاك» الجموع الدينية بالرصاص، وغيره من أساليب المواجهة، وأسفرت المواجهات عن ما لا يقل عن أربعة آلاف قتيل طبقا للتقديرات الحكومية أو ١٥ ألفًا طبقا لدوائر الخمينى.

وفى إبريل ١٩٧٤ أضرب حوالى ألفى عامل فى مصنع نسيج مطالبين بزيادة الأجور، فقتل منهم «السافاك» عشرين، وجرح عدد آخر واكتفى الباقون من الغنيمة بالإياب.

منظمة العفو

وتقول منظمة العفو الدولية عن أساليب التعذيب التى كان يستعملها «السافاك».

«إن «السافاك» لا يستعمل الوسائل المعروفة، من صدمات كهربائية وضرب وحسب.

وإنما يلجأ إلى ممارسات أخرى ابتدعها.

مثل إدخال الزجاجات المكسورة فى «...»

أو ربط الأوزان الحديدية الثقيلة إلى «...»

أو تدريب حيوانات متوحشة على عمليات «الاعتداء الجنسى» على المعتقلين وغير ذلك الكثير.

أما عن المعتقلين فتقول التقارير:

«لم يكن عدد المعتقلين عند «السافاك» يقل فى أى يوم من الأيام عن خمسة وعشرين ألفًا من المواطنين الإيرانيين، وبلغ فى بعض الأحيان ما يزيد على مائة ألف.

ودفاع عن «السافاك»

ولايقف السافاك وحده فى مواجهة الاتهامات التى انهالت عليه من كل جانب، بل ها هو الشاه محمد رضا بهلوى يدافع عنه فى مذكراته متهمًا الغرب بتضخيم أخطار الجهاز.

فيقول الشاه فى مذكراته:

«لقد بالغ العصاة المسلحون فى أنشطة «السافاك» لزيادة تحريض الشعب ووفقًا للرواة فإن عدد المسجونين السياسيين والأشخاص الذين عذبوا فى سجوننا يتراوح بين ٢٥ ألفا ومائة ألف، بالرغم من أن إحدى الصحف السرية فى إيران والتى تستخدمها المعارضة ضد الحكم وضد «السافاك» ذكرت أن عدد الأشخاص المقبوض عليهم لأسباب سياسية فيما بين عام ١٩٦٨, ١٩٧٧ - أى حوالى ٩ سنوات - قد بلغ ٣١٦٤ شخصًا بالضبط».

«ولا أستطيع الدفاع عن كل عمل «للسافاك» ولن أحاول ذلك هنا».

«كان هناك ناس ألقى القبض عليهم، وأسيئت معاملتهم، ولسوء الحظ فإن عالمنا هذا ليس عالمًا مثاليًا، ووحشية البوليس موجودة فى أنحاء العالم».

«وإمكانية إساءة استخدام السلطة والوحشية تعد أمرًا لازمًا لعمل البوليس، وقد وقعت بلادى أيضًا ضحية لمثل هذه التجاوزات، ومع ذلك فكلما علمت عن سوء استخدام للسلطة، كنت أضع نهاية له»

«ومن المحتم أن يكون بعض الإرهابيين قد ماتوا فى مواجهة مع «السافاك»، والبوليس المحلى، ولكن أحدًا لم يرغمهم على إشمال الحرائق، والسلب والقتل فهم كانوا ضحايا اختيارهم الخاص».

«وليس فى إمكان أحد أن يخبرنى باسم سياسى واحد تمت «تصفيته»... بواسطة «السافاك»».

«ومع ذلك تواصل الدول الغربية لعبة الشيوعية، فهى تدعى أن إراقة الدماء والموت لاعلاقة لهما بالإرهابيين، ولكنهما من صنع عملاء السافاك «والبوليس»».

«ولو كان «السافاك» فعلا مثلما ادعى أعدائى لما خرجوا من بيوتهم إلى الشوارع يصيحون بما يشوه السمعة».

«وبحلول نوفمبر ١٩٧٨ كان العدد الإجمالى لنزلاء سجوننا ٣٠٠ شخصا فقط وذلك فى دولة تعدادها ٣٥ مليونا، ولكن الصحافة الغربية واصلت التصديق على نحو أعمى بأرقام خومينى، وهى مائة ألف سجين».

ودفاع عن النفس

ويواصل الشاه دفاعه بما يتعدى الدفاع عن «السافاك» إلى الدفاع عن النفس فيقول فى مكان آخر من مذكراته:

«فى فبراير ١٩٧٨ انفجرت موجة جديدة من الاضطرابات فى تبريز لم تلبث أن انتشرت إلى مدينتى «قم» و«مشهد» المقدستين وقد

«عاقبت حكومتى فى شهر مارس الذى يليه بعض عناصر من الشرطة «والسافاك» بسبب تصرفاتهم فى تلك الأحداث».

«وهذا يبين أن «السافاك» لم تكن تتصرف كما يحلو له فى البلاد».

ولـو

على أنه مهما قال الشاه ومهما دافع عن نفسه وعن «السافاك» فإنه فى هذه الجزئية بالتحديد لا يستطيع أن ينفى كل تهم السافاك، ولا أن

يمسح وجهه القبيح بعصا سحرية؛ لأن دماءً كثيرة لشهداء كثيرين لطخت وجهه وسمعته.

الخومينى و«السافاك»

وبما لا يحتمل الجدل فقد كان «السافاك» تدخل فى كل شىء حتى أدق أمور السياسة فى إيران.

ويذكر فى هذا واقعة شديدة السرية بين الخومينى و«السافاك».

فقد ثبت أن الخومينى كان من أكبر المحرضين على ثورة ١٩٦٣ ضد إصلاحات الشاه، والتى سيطرت عليها الحكومة «بالسافاك»، والضحايا، وصار من المؤكد أن يواجه الخومينى بحكم الإعدام أو على الأقل بحكم شديد القسوة.

وهنا سعى آية الله كاظم شريعة مدارى، الذى كان فى قمة التنظيم الدينى فى ذلك الوقت إلى إنقاذ الخومينى.

كيف؟!

سعى آية الله شريعة مدارى لدى الجنرال حسن باكراماه رئيس «السافاك» يومها لكى يتم الإنعام على الخومينى بلقب «آية الله»، وهو لقب يحمى حامله من مسائل كثيرة، أولها المحاكمة، أو حتى لا تفرض عليه عقوبات عنيفة أو يتهم بالخيانة العظمى.

ومن أجل خاطر شريعة مدارى وبتدخل باكراماه كان كل ما اتخذ مع الخومينى، هو إجراء.. أبسط من البساطة، قياسًا إلى ما كان يمكن أن يحدث له.

طلب منه فقط. مغادرة البلاد.

رد الجميل

وعندما عاد الخومينى إلى طهران فى فبراير ١٩٧٩ كان أول شىء فعله هو رد الجميل لهؤلاء الذين أنقذوا رقبته من حبل المشنقة.

أصدر قرارًا بإعدام الجنرال حسن باكراماه.. ربما لأنه الشخص الوحيد الذى يُعرف بأنه يومًا ما كانت هناك صلة بين الخومينى و«السافاك».

وبعد قليل أصبح من أعدى أعداء آية الله شريعة مدارى.

وإذا لم تكن هذه الحادثة.. إعفاء الخومينى المدان فى واحدة من أكثر المصادمات الدامية بين آيات الله والشاه عنفًا، تثبت تدخل السافاك القوى المؤثر فى كل الشؤون فماذا يثبت؟!.

خيانة السافاك

كان كل شىء ممكنًا بالنسبة «للسافاك» ومحتملاً، إلا أمر واحد وهو الخيانة، ولكن.

ومما لاشك فيه أن السافاك كان واحدًا من أكبر دعائم الشاه، ودواعى استمراره.

ولكن أن يخون «السافاك» الشاه فهذا ما لم يكن ممكنًا أن يخطر على بال أحد، مجرد أن يخطر.

ولكن السياسة بلا عقل ولا قلب ولا ضمير.

فقد حدث.

ففى الوقت الذى كان رجال الدين فيه تتزايد قواهم، وهم يلعنون الشاه علانية وبإصرار وتنظيم من فوق ١١ ألف منبر فى مساجد إيران.. لم

يصل شيء من هذا إلى أسماع الشاه.. لسبب بسيط هو أن السافاك وهو المفروض أن يسمع كل شيء ويفهم كل شيء لم يذكر للشاه كلمة واحدة عن تنامى قوة رجال الدين وعن الكراهية التى أشعلوا نارها ضد الشاه.

احتمال الخطأ فى هذا.. أى الخطأ فى إبلاغ الشاه لايتجاوز جزءًا عشرى من مائة ألف، ولايبقى إلا احتمال الخيانة.

فقد كان الشاه يلتقى يوميًا بحسين فردست.. رئيس مخابرات القصر الإمبراطورى، والذى كان فى نفس الوقت نائبًا لرئيس «السفاك».

كان صديقًا للشاه منذ الطفولة ولا مجال إطلاقا للشك فى ولائه للشاه، الذى كان دائمًا بالنسبة له مصدره الأصلى والأساسى للأخبار الهامة والتطورات الخطيرة، ولكنه فى هذه المرة ورغم اللقاء اليومى، حجب هذه المعلومات بالذات عن الشاه.

وكان لحجب هذه المعلومات بشكل مباشر عن الشاه وجه آخر على نفس القدر من السوء، بشكل غير مباشر، فقد أحجم الكثيرون من أصدقاء الشاه عن إبلاغه بما لم يقله رجال «السافاك».

وطبعًا كان عدم وصول معلومات صحيحة للشاه عن حجم قوة المعارضة سببًا رئيسًا فى سقوط حكم الشاه، لأنه لم يواجه المعارضة بالقوة المناسبة لقوتها.

اتهـــام

وتذهب الأميرة أشرف بهلوى شقيقة الشاه التوأم إلى أبعد من الخطأ أو التقصير فى إبلاغ المعلومات بالمعارضة إلى الشاه.. تذهب إلى حد الاتهام المباشر بالخيانة مع تقديم الدليل.

فتقول فى مذكراتها:

«على الرغم من هذا اللقاء اليومى، إلا أن حسين حجب بالفعل معلومات مهمة حول الوضع الداخلى عن الشاه، بل وكان يجرى بالفعل محادثات نشطة مع الخومينى».

والدليل.. «السافاما»

«خيانة بكل معنى الكلمة.. ودليلى على ذلك أن كل من كان قريبًا من الشاه فى الفترة الأخيرة أعدمه الخومينى».

«بينما ظل «حسين فردست» على قيد الحياة».

«بل أصبح حسين فردست مديرًا لجهاز جديد للأمن، أقامه الخومينى الذى استبدل به جهاز «السافاك» والذى أسماه.. «السافاما».

■ ■ ■

الثروات المنهوبة



■■ وانتُـهكت الأعـراف وصـار الحكم فى يد رجلين، استولى كل منهما على جزء من البلاد وأصبحت البلاد غنيمة ومطمعًا، وأصبح هدف الحكام الحصول على المال، ولكن ماذا كانت نتــيجــة هذه الصــراعـــات؟

إيران والبترول

يقولون: إن البترول هو نعمة البلاد المنتجة له، وهو فى نفس الوقت النقمة عليها.

وتعتبر إيران المثل والتطبيق لهذا القول، فإن إيران وبسبب بترولها كانت مستهدفة من القوى الخارجية، حتى قبل أن يتضح الحجم الحقيقى لثروتها البترولية، وكانت أيضًا مسرحًا لصدامات هذه القوى.

وقد كان البترول دائمًا ومنذ حقب قديمة، ماثلاً فى الفكر الاقتصادى الإيرانى، ولكن إمكانيات إيران الفنية والاقتصادية كانت قاصرة عن مجرد إظهاره ليتحول من فكر إلى واقع ومن آمال إلى تطبيق، وليأخذه مكانه فى قيادة اقتصاديات هذه الدولة.

والتاريخ الحديث لبترول إيران يبدأ فى عام ١٨٧٢، حيث كان هناك رجل أجنبى هو البارون جوليوس دى روتير الذى قد حصل على كثير من الامتيازات فى إيران، من بينها حق استغلال المناجم فى غرب إيران.

كان حاكم المنطقة الغربية من إيران يعتقد اعتقادًا جازمًا بوجود النفط فى منطقة نفوذه، ومن ثم كلف هذا المحافظ «جيولوجا» وهو أجنبى أيضًا و يدعى جاك دى مرجان بدراسة موسعة عن مصادر النفط فى إيران.

ونشر البحث فى أوربا، وكان به الكثير الذى يلفت أنظار المغامرين من أهل أوربا.. الباحثين عن فرص الثروة فى مثل هذه الظروف.

ومن بين هؤلاء كان وليام كنوكس داركاى وهو رجل بريطانى استطاع أن يحقق ثروة من مناجم الذهب فى استراليا وقادر ماديا على الاستثمار فى الحفر واستكشاف البترول.

وحصل داركاى على امتياز البحث عن البترول فى جنوب إيران عام

١٩٠١ لمدة ٦٠ عامًا مقابل أن يدفع للحكومة الإيرانية مبلغ ٢٠ ألف جنيه استرليني سنويًا، وأن يكون لها ملكية ٢٠ ألف سهم فى الشركة التى كونها لهذا الفرض، بالإضافة إلى ١٩ فى المائة من صافى الأرباح التى تحققها الشركة.

وعندما شعرت الحكومة البريطانية بأهمية شركة داركاى ونجاحها.. سعت إلى شراء معظم أسهم هذه الشركة.

بترول خوزستان

وبدأت عمليات البحث عن البترول فى جنوب إيران فى خوزستان وسط ظروف بالغة القسوة.

درجة الحرارة نهارًا تصل إلى ١٣٠ درجة فهرنهايت، ولا وسائل للإعاشة إطلاقًا وكل نواحى الحياة بدائية متخلفة.

غارات القبائل

ولكن كل هذا لم يكن ذا بال إذا ماقورن بهجمات رجال القبائل الذين كانوا يغيرون على مخيمات العاملين فى حقول البحث عن البترول ويستولون على كل ما يستطيعون.

وكانت هذه الهجمات كثيرة وشبه يومية.

تدخل خارجى

وكان لابد من حماية لهذه الثروات المنهوبة، والحكومة المركزية فى طهران عاجزة عن أن تقدم أى مساعدة فى هذا الصدد.

تأخذ بريطانيا المبادرة، بل وأكثر من ذلك فقد وجدتها فرصة لنشر وجودها العسكرى فى إيران، فجاءت بقوات هندية عسكرية إلى جنوب إيران.

وصمت حكومى ..

إلا أن السلطة الحاكمة فى إيران كانت أضعف من أن تواجه الموقف، بل أضعف من أن تعترض.

والأكثر من ذلك أن بعض الحكام من أسرة «قاجار» كانوا فى حقيقة الأمر يؤيدون هذه الخطوة من جانب بريطانيا.

جمـــارك

كان كل ما يهم الحكام هو الحصول على بعض المال، وحق البلاد المهدر فى عوائد النفط ومقابل حقوق الامتياز الممنوحة.

وكان كل ما اتخذ من إجراء فى هذا الشأن هو إرسال رجل جمارك كان قد أحيل إلى الاستيداع قبلاً ليكون ممثلاً للحكومة لدى الشركة ويراقب الإنتاج.

والذى حدث أنه بمجرد وصول هذا الرجل «ممثل الحكومة» إلى مقر الشركة فى خوزستان، أن قامت الشركة بتعيينه موظفًا فيها، وبذلك صارت اهتماماته الحقيقية موجهة إلى مصالح الشركة.. لا الحكومة، ولا حاكم إيران.

■ ■ ■

الإنهيار الكبير



وزادت الفوارق الاجتماعية والحقد الطبقى، وشهدت البلاد أسلوبًا مختلفًا للحياة؟ فهل دامت هذه النعمة أم كانت نقمة انقلبت على أهلها؟

وأخيرا الإنتاج

وتحت كل هذه الضغوط والظروف تم الانتهاء من مد خط الأنابيب من مسجد السليمان إلى عبدان ١٩١٢، وخلال العام التالى مباشرة كان الإنتاج ٨٠ ألف طن، وخلال ثلاثة أعوام فقط تضاعف حجم الإنتاج ثلاث مرات، وصار واضحًا أن صناعة البترول ستصبح الصناعة الأولى فى إيران، وأنها تشكل جانبًا مهمًا من صناعة البترول على مستوى العالم.

وتم إنشاء شركة النفط الإيرانية ـ الإنجليزية.

مطالبـــات

وبعد اعتلاء رضا شاه للعرش الإيرانى حاول جاهدًا ودائمًا زيادة عوائد النفط التى يحصل عليها الجانب الإيرانى، ولكن دون جدوى فقد ظلت إيران تحصل على الفتات ولم تر الشركة ما يدعوها إلى التنازل عن امتيازاتها، ولاحقوقها ولا شروطها ولا حتى متأثرة بما حدث بالنسبة للشركات النفطية الكبرى المماثلة لها، نتيجة صراعها مع الحكومات صاحبة الأرض التى تعمل عليها.

اتفاقيـــة

وكان طبيعيًا أن تسرى هذه الموجة إلى إيران.

وحاول الرجل العسكرى الجالس على عرش إيران التفاهم مع شركة البترول التى كان مفروض أنها إيرانية إنجليزية، أى أن للجانب الإيرانى تأثيرًا فيها، ولكنها التسمية فقط، ولكن الإنجليز رفضوا التفاهم معه تمامًا.

فما كان من شاه إيران إلى أن ألغى امتياز الكشف على البترول.. الذى حصل عليه «داركاى» الإنجليزى والذى كانت كل أعمال البترول فى إيران

امتدادا لهذا الامتياز.

وكان معنى هذا الإلغاء والذى جرى فى عام ١٩٣٢ أن تتوقف جميع أعمال البترول فى إيران.

وتحت هذه الضغوط تم التوصل إلى إتفاقية جديدة للبترول عام ١٩٣٣ وهى التى ظلت سارية المفعول حتى ١٩٥٠.

روسيا.. والبترول

لم يكف الاتحاد السوفييتى عن التفكير فى بترول إيران، وكانت هناك محاولة روسية لاستقطاع إقليم أذربيجان من إيران، وتكوين جمهورية شيوعية فيه تتبع موسكو، وبالتالى تحول إليها بترول هذه المنطقة، ولكن المسألة فشلت وتحولت بعد ذلك لمسألة بترولية بحتة.

وكانت هناك اتفاقية بين أحد رؤساء الوزارة فى إيران والسفير الروسى فى إيران عرفت باسم اتفاقية قوام ـ سارشكوف، تعطى للروس الكثير.

وعرضت اتفاقية قوام ـ سارشكوف على البرلمان فى اكتوبر ١٩٤٧، ورفضت بأغلبية ١٠٢ ضد صوتين.

مصدق والبترول

ثم كانت بعد ذلك مشكلة مصدق والبترول كما أوضحنا من قبل.

وزاهدى والبترول

وساد إيران جو من الهدوء بعد مصدق.

وكان أول شىء حرص عليه الجنرال فضل الإله زاهدى.. رئيس الوزراء المنتصر.. هو أن يعود العمل إلى حقول البترول.. عصب الاقتصاد الإيرانى.

فأعاد العلاقات الديبلوماسية مع بريطانيا، والتى قطعها مصدق، وكان ذلك لابد منه، لأنها الخطوة الأولى لحل مشكلة البترول.

وأعلن عن تكوين شركة البترول البريطانية عام ١٩٥٤.

اتفاقية جديدة

وبدأت المفاوضات مع «كولستورنيوم بترولى»، وهو تغيير اقتصادى ويعنى اتحاد شركات، ضم شركات بريطانية وأميركية وفرنسية وهولندية، وفى سبتمبر عام ١٩٥٤ تم التوصيل بين إيران.. واتحاد

الشركات البترولية هذا بجانب إلى اتفاقية المشاركة لاقتسام العوائد مناصفة ٥٠٪ لكل طرف.

ولأول مرة تحصل إيران على هذا القدر من عوائد بترولها.

وقد عدلت هذه الاتفاقية بعد ذلك لصالح إيران بحيث تحصل على ٧٥٪ من عوائد بترولها.. بينما يكون نصيب الشركات الأجنبية ٢٥٪ فقط.

وتدفق البترول وتدفقت العوائد.

وانتعشت الحالة الاقتصادية فى إيران كلها.

وحصل كثير من المعدمين على دخول لم يكونوا ليحلموا بها يومًا، وظهرت فى المجتمع الإيرانى طبقات ثرية جديدة، وصار أصحاب الثروات الأصليين مليونيرات تثقلهم أحمال أموالهم.

تناقض

وقد سبق أن قلنا: إن البترول يمثل بالنسبة لإيران النعمة والنقمة معًا، وهنا يظهر هذا الأمر جليًا.

فها هى نعمة البترول تتدفق عوائدها لتصل إلى أفقر الناس.

ويصل معدل العمالة فى إيران إلى ١٠٠٪ وهو أمر نادر حتى فى أكثر المجتمعات المتقدمة نموًا اقتصاديًا.

فمن عمل فى صناعة البترول عمل ومن لم يعمل فى البترول عمل فى القطاعات الاقتصادية والأنشطة الأخرى التى ازدهرت بالتبعية، وجميعًا، وكان هناك وظيفة لكل قادر على العمل.

وذاق المحرومون طعم النعمة.

ثم كانت النقمة.

كان من المفروض أن يرضى هؤلاء، ويسعدوا.

ولكن حدث أمر غريب.. وتفسخ اجتماعى ونفسى كامل، فهؤلاء الذين وصلتهم النعمة أخيرًا أحسوا بشعور معكوس، بدلاً من السعادة بها.

أحسوا أنهم حرموا كثيرًا وطويلاً.

وتولدت لديهم مشاعر حقد مدمر تجاه هؤلاء الذين لديهم النعمة.. حقد مدمر ومزدوج.

أولاً: لأنهم تنعموا كثيرًا وطويلاً.

وثانيًا: لأنهم تركوا الفقراء محرومين كثيرًا وطويلا.

حرب ١٩٧٣

ثم كانت حرب ١٩٧٣ فى مصر وما زامنها من «حرب البترول».

من المعروف أن الدول العربية تمثل أكبر منتج للنفط فى العالم.. وبالتالى أكبر مؤثر فى سوق النفط العالمية.

ومن المعروف أيضًا أن كل الحروب التى خاضتها مصر مع إسرائيل فى

السابق.. بداية من عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ قد خاضتها وحدها وبدون مساندة تقريبا من الإخوة العرب شركاء القضية.

ولكن الأمر اختلف فى حرب ١٩٧٣...

بلا شك لاختلاف أشخاص القادة فى مصر وفى الدول العربية على حد سواء.

فكان للعرب دور فعال وحقيقى ومؤثر.

ورجع هذا بلا شك إلى شخصية عربية واحدة هو الملك فيصل آل سعود ملك السعودية فى ذلك الوقت.

حرب البترول

أعلن العرب حرب البترول.

حظرًا بترولياً على إسرائيل، وكل من يساندها.

دفاعًا عن الحق العربى..

ومن يساندون إسرائيل معروفون.

هددوا.. أرغدوا.. أزبدوا.. توعدوا..

وكان الرجل قائد حرب البترول.. الملك فيصل الأكثر صمودًا..

الأكثر شجاعة، بل والأقسى ردًا.

... وقف ليعلنها مدوية: «البترول مقابل القدس».

وقامت دنيا الغرب ولم تقعد إلا بعد استشهاده.

ولهذا ولغيره من أسباب تتعلق بموضوع الكتاب يجد القارئ سيرة موجزة للملك فيصل فى مكان آخر من هذا الكتاب.

والمسلم.. الخائن

وفى المقابل..

وعلى الجانب الآخر تمامًا

وقفت إيران.. الشاه المسلم.. يخون قضية المسلمين، قضية تحرير الأرض المسلمة المحتلة، قضية القدس الإسلامية المحتلة.

ولم تكن الخيانة سلبية بعدم التأييد أو التخاذل السياسى، بل كانت خيانة حقيقية إيجابية قتالية.

لقد كانت الطائرات المعادية التى تقصف القوات العربية المسلمة، والدبابات التى تقطف أزهار عمر الشباب العربى المسلم المقاتل.. كانت تعمل وتتحرك بالبترول الإيرانى المسلم.

المكاسب الإيرانية

ومن الناحية الاقتصادية حققت إيران مكاسب خرافية، نتيجة الحظر البترولى العربى فقد استغلت الطلب البترولى المتزايد فى سوق خلت من العرض.

رفعت إيران سعر بترولها إلى مايزيد لى أربعة أمثال وصار سعر البرميل الذى لم يكن قد وصل بعد إلى ثلاثة دولارات إلى ١٢ دولارًا للبرميل.

وبلغت العوائد الإيرانية أرقامًا فلكية.

وتضاعف الدخل القوم الإيرانى.

وكان دخل الفرد فى إيران قد ارتفع عام ١٩٦٠ نتيجة عوائد النفط إلى ١٧٦ دولارًا فى العام وهو ما اعتبر أمرًا عظيمًا بالنسبة لما سبق.

ولكنه فى عام ١٩٧٦ ونتيجة لهذه «القفزة» فى سعر البترول ارتفع إلى حوالى ٢٠٠٠ دولار سنويا.

وصار المعدمون.. ملاكًا وأتخم الاثرياء..

وفى نفس الوقت وبنفس القدر، زادت الفوارق الاجتماعية والتناقض الاجتماعى والحقد الطبقى.

وشهد الاقتصاد الإيرانى طفرة غير منظمة.

ككل أثرياء الحرب، ومحدثى النعمة صارت إيران تطلب من كل مكان فى الدنيا أحسن شىء ولو كان مظهريًا، وبأى سعر وبأسرع وقت.

تضخم.. أسطورى

ونتيجة لهذا وجدت فى الأسواق الإيرانية كافة المنتجات من كافة أنحاء العالم خاصة الغربى.

ونتيجة لهذا أيضًا بلغت نسبة التضخم أقصاها.

وصارت كل الأيدى المليئة بالنقود الكثيرة لا تستطيع أن تمتد إلى هذه السلع ذات الأسعار المرتفعة كثيرًا.

وكان هذا الوضع للأسف فى أكثر السلع حساسية وتعلقًا بالحياة اليومية للمواطن فى الشارع.. السلع الغذائية.

ويستمر هذا الوضع طويلاً.

ويضج الناس عاليًا وكثيرًا.. سخط شعبى مكتوم.. ينتظر «التنفيس».

البترول والثورة

وتستمر هذه الأوضاع والضغوط التى كانت سببًا ولاشك.. فى التجاوب الشعبى الضخم مع الثورة الجديدة.

ولم يكن غـريبـا على البـترول الذى لعب بالنسـبـة لإيران دائمًـا الدور المزدوج ذا الوجـهـين النـعـمـة والنقـمـة.. لم يكن غـريبًـا أن يكون هـو وبشكل مباشر الذى أشعل الشرارة الأولى فى طريق النهاية.

كان عـمـال البـترول أول من أعلن الإضراب فى اكتوبـر ١٩٧٨.. وفـجـأ هبط الإنتاج من خـمسـة مـلايين ونصف المليـون برمـيل يوميـا إلى مـائة ألف برميل فقط.

وصـارت الصـورة مـفـزعـة، فـالاسـتـهـلاك الداخلى اليومى المطلوب لإيران وحدها يبلغ٧٠٠ ألف برميل.

وصـار مألوفًـا فى إيران.. البلد البترولى أن تقف السـيارات، بل وتتراكم فى «محطات البنزين».. وتنتظر لكى تحصل على جزء من حاجتها وذلك إن كانت سعيدة، وإلا عادت خائبة.

ومع نقص الطاقة، تتداعى باقى القطاعات.. وهذا مبدأ اقتصادى معروف.

وتأثرت قطاعات النقل والكهرباء...و...و...الخ.

ولكن كان الأهم والأخطر هـو القطاعات الاستهلاكيـة.. المتعلقة بالحياة اليومية للناس فارتفعت الأسعار بصـورة جنونية وفجأة زادت نسبـة التضخم عن ٥٠٪..

وأصبح الناس يوميًا يبحثون عن الخبز الذى توقف إنتاجه بسبب توقف المخابز تقريبًا لتوقف تدفقات البترول.

وباتت الصورة بشعة.

بل شـديدة البشـاعة..

وانهار كل شـىء.

■ ■ ■

ودخلت الإمبراطورة القصر



■ ■ وقضت الإمبراطورة الجميلة سنوات فى العز.. وبنفس القدر عاشت أقصى درجات الذل والهوان.. فهل كان حلم العرش فى مهب الريح؟ أم استطاعت أن تغير المفاهيم السائدة؟

ثريا الإمبراطورية الثانية

بعد طلاق فوزية.. وانتهاء فترة نقاهة الإمبراطور الحزين على زوجته الأولى، والتى نظمتها أخته الأميرة أشرف بما يكفل سرعة الشفاء من حب هذه الزوجة، بدأت دوائر البلاط الإمبراطورى فى إيران فى البحث عن زوجة جديدة للشاه.. إمبراطورة جديدة أو بمعنى أصح وأدق.. عمن تتجب وريثًا للعرش.

اختيـــار

وفى هذه المرة كان الإصرار على أن تكون إيرانية وطبعًا فائقة الجمال وذات حسب ونسب، وعندما يكون العريس إمبراطورا فسرعان ما تتهال العروض على العريس وليس العكس، وتتقاطر الفتيات على الحفلات التى تقام فى القصر الإمبراطورى.. ليراهن الشاه ويختار منهن من يشاء.

وأخيرًا وقع الاختيار على ثريا خليل اصفنديارى والمولودة فى أصفهان لأم ألمانية وأب إيرانى من قبيلة بختيارى القوية، وكان جدها يوماً ما شيخا لهذه القبيلة، إبان فترة الانهيار والتفكك فى إيران قبل حكم رضا شاه، وكان لهذا الجد جيش خاص قوى استطاع بواسطته أن يستقل عن الدولة بحكم الإقليم الذى تحتله فى جنوب إيران الغنية بالبترول حتى قضى رضا شاه على نفوذه.

وبسرعة أصبحت الفتاة الصغيرة ذات الثمانية عشر ربيعًا فائقة الجمال.. الطويلة ذات العيون الخضراء إمبراطورة لدولة بعد أن كانت كل أحلامها أن تصبح نجمة سينمائية، وهذا يفسر اتجاهها للتمثيل بعد انفصالها عن الشاه فيما بعد.

واختبــار

وكان الترشيح للزواج طبعا من جانب أسرة ثريا، وطلب الشاه رؤيتها فى قصـر والدته تاج الملوك وطالت جلسـة التعـارف، حتى كانت ثلاث ساعات وفى المساء أصبحت مشروع إمبراطورة وتحدد يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٥٠ لإتمام الزفاف.

مــرض

وقبل أيام من هذا اليوم أُصيبت ثريا «بالتيفود» وتم إنقاذها من الموت بمعجزة، وتقرر تأجيل الزفاف إلى ١٢ فبراير ١٩٥١.

وتحسنت صحة ثريا ولكنها قبل أيام من موعد الزفاف الجديد.. أصيبت بنكسة وعاودها المرض من جديد.

ولم يكن ممكنا هذه المرة تأجيل الزفاف، حيث كانت نيران ثورة مصدق فى بدء اشتعالها، ولايضمن أحد ما تأتى به الأيام.

وزفــاف

وتم الزفـاف فى مـوعـده، وكـانت العـروس فى حـالة ضـعف وهزال شديدين، حتى أنها بالكاد استطاعت أن تتحرك بفستان الزفاف.

وأُقيمت احتفالات الزواج فى قصر المرمر وحضره ٢٠٠٠ مدعو مرة أخرى أيام من ألف ليلة وليلة يحضرها وجهاء إيران، وبعض الشخصيات العالمية.

وسافر العروسان إلى مكان هادئ على بحر قزوين حتى تسترد العروس المريضة صحتها، على أمل أن تبدأ شهر عسل فى أوربا بعد تمام شفائها.

ووعيـــد

ولم تنس الأمـيـرة أشـرف.. الشـرسـة قـوية الشكيـمـة المسيطرة أن تستدعى العروس صباح زفافها إلى الإمبراطور وقبل أن تبدأ حياتها معه تقريبًا استدعتها لتقول لها: «أمامك سبع سنوات فقط، فإما ان تنجبى خلالها ولى العهد وإما أن ترحلى» «ولابد أن افهمك بأن مهمتك الأولى هى إنجـاب ولى العـهـد» «وتنفيـذ هذه المهـمـة فقط هو الذى يبـقيك على رأس الإمبراطورية».

ولم تنجب ثريا ولى العهـد وبعد مضـى سبع سنوات بالضبط بالتمام والكمال فى ١٣ فبراير ١٩٥٨، كان الشاه يعلن ومن إذاعة طهران.. طلاق.. الإمبراطورة ثريا.

سنوات العز والذل

وأمضت الإمبراطورة العروس هذه السنوات السبع سريعًا، نـالت فيها أقـصى درجـات العـز وفى نفس الوقت وبنفس القـدر أقـصى درجـات الذل والهوان.

فشهر العسل الذى كان مقررًا له أن يبدأ بعد أيام الراحة على ضفاف بحر قزوين، كان شهر عذاب ونار.

عسل مصدق

عـاد الزوجـان الإمبـراطوريان مـن قـزويـن ليجـدا أن نار مـصـدق بدأت تخـرج من خبـائهـا، وبدأت ألسنتهـا تطول القـصـر الإمـبـراطورى، والأسـرة الحاكمة.

طرد مـصـدق الأمـيـرة أشـرف من إيران وكـان ذلك بمثـابة صـفـعـة قوية على وجه الإمبراطور أمام الجميع.

وبعد قليل، أصبح الشاه نفسه سجين مصدق فى طهران، وأصبحت الإمبراطورية كلها فى قبضة مصدق والشاه لا يحكم، ولا حتى بالاسم.

وفى المرة التى سافرت فيها أوربا وهى عروس لم تكن للنزهة والبهجة بل سافرت هاربة.. هى وزوجها الشاه على طائرة أقلتهما.. والشاه مطرود من مقر حكمه إلى بغداد ومنها إلى إيطاليا.

والعرش كله فى مهب الريح.

وذل العقم

منذ الشهور الأولى للزواج كانت مسألة عدم إنجاب ثريا موضع تساؤل وبعد شهور أخرى صارت موضع همس.

وعرض الشاه عروسه المحبوبة على أمهر الأطباء وكان الجواب دائمًا «ليس هناك سبب عضوى لهذه الحالة.. ابحثوا عن المسائل النفسية».

وكانت هذه موجودة دائمة.

وكانت ثريا تسمع لفظ عقيم فى أورقة القصر همزًا ولمزًا، حتى أنها لتقول: إنها كلما سارت فى أنحاء القصر كانوا بأعينهم. «يقيسون خصرها النحيل ليعلموا أن هناك حملاً أم لا».. والتعليق بعد ذلك «لن تلد.. عقيم» ثم بعد ذلك كانت تواجه هذا الاتهام علانية ومواجهة، فأم الشاه.. حماتها تاج الملوك سارت تفعل ذلك علنًا ومواجهة، أما الأميرة أشرف وهى الخبيرة فى أمور كثيرة خاصة المواجهة فى اليوم التالى للزفاف، فقد كانت تعلم كيف تسقيها كأس الذل والمرار، حتى الثمالة.

ميلاد.. ووفاة

وزاد الطين بلة ما حدث فى نهاية عام ١٩٥٤.

كانت الترتيبات تجرى على قدم وساق للاحتفال بعيد ميلاد الشاه،

واجتمعت الأسرة ولم يبق إلا الأمير على رضا.. شقيق الشاه، والذى كانت تعقد عليه الآمال كوريث لعرش بهلوى فى حالة الاضطرار.

كان الأمير على رضا فى رحلة ترفيهية فى منطقة بحر قزوين، وكان يعلم بموعد حفل عيد الميلاد، وانتظره الجميع، ولكنه لم يعد لم يعد أبدًا.. مات فى حادث مفجع.

فى رحلة العودة، وبالقرب من طهران ارتطمت الطائرة الملكية، والتى كان يقودها الأمير على بنفسه بالجبال، وعثروا عليها وعليه أشلاء مترامية هنا وهناك، بعد عشرة أيام.

حصـــار

وصارت المسألة فى ذهن وعلى لسان الجميع.. أنه لابد من أن تأتى ثريا بالولد الذكر ولى العهد.

وكانت كلمة العلى القادر سبحانه وتعالى قد قيلت منذ الأول بألا يكون لثريا ولد «ويجعل من يشاء عقيمًا».

وكان الشاه يحب ثريا حبًا عظيمًا، ولكنه لم يستطع أن يدفع عنها ما تلاقيه خاصة من أمه وأخته المشاكسة أشرف وأخيرًا أخته السلبية شمس.

وتسريـــة

وتأثر الشاه هو الآخر بمسألة عدم الحمل، وانضم للسباق المسعور مع الزمن، والقدر، فكان كثيرًا ما يعامل زوجته بنوع من الجفاء، ولكنه كان سريعا ما يعود لنفسه وقلبه فيغمرها بالحب والحنان، ولكن من موقع الرجل الذى لا يستطيع شيئًا لها ولا لنفسه.

نجومية عالمية

على أن الشاه اهتدى إلى وسيلة فعالة.. السفر والترحال.

وقام الشاه وعروسه بأكبر عدد من الرحلات ممكن أن يقوم به حاكم.

ربما كان السبب الظاهر هو أن لهذا الحل والترحال أسبابًا سياسية من تعارف وزيادة الروابط مع حكام الدول الأخرى، ولكن بلاشك أن السبب الحقيقى أنه كان يهرب بزوجته وبنفسه وبحبه من هذا القصر الفخم الكئيب الذى لا مجال فيه للمسائل الإنسانية.

النشاط الاجتماعى

ولم تكتف ثريا بالهروب الخارجى من واقعها الأليم المر، بل ألقت بنفسها فى الداخل وبالكامل فى النشاط الاجتماعى فى مؤسسة ثريا الاجتماعية وفى غيرها.

ونزلت إلى الشعب تشاركه آماله وآلامه، سعادته وشقاءه، وربما فاقت منزلتها الشعبية منزلة الشاه وبمراحل.

بدائل الإنجاب

ولما كانت مسألة أن تنجب الإمبراطورة ثريا وريثًا للعرش قد أصبحت محسومة بعدم الإمكانية.

ولما كان الشاه، لايستطيع فراقها.

فكان البحث عن بديل لمسألة الإنجاب.

فاتجهت النية إلى تعديل الدستور بما يمكن من تولى الأميرة شاهيناز.. ابنة الأميرة فوزية الحكم، واتخذت فعلاً بعض الاجراءات، ولكنها لم تستمر.

ووجه الشاه الأمور إلى أن يُعين وليًا للعهد من إخوته غير الأشقاء.. ولكن الإمبراطورة الأم القوية رفضت أن تضيع كل جهودها فى وضع التاج على رأس ابنها.. لم تكن لترضى بانتقال هذا التاج الى رأس ابن «ضرتها».

والأميرة أشرف المتآمرة لم تكن من ترضى أن يأتى الحاكم الذى «يهمش» دورها.

حل وسط

وكحل وسط اقترح الشاه على ثريا أن يتزوج من أخرى زوجة ثانية دون طلاقها هى، ولكن ثريا رفضت.. وفشلت محاولات إقناعه لها بعد مفاوضات بينهما جرت على مدى بضعة أسابيع، بأن هذه الزوجة للإنجاب فقط.

ثم وافقت، بشرط أن تختار هى بنفسها هذه الزوجة الثانية التى يجب أن تعيش فى بيت بعيد عن القصر الإمبراطورى، وأن تكون كل مهمتها إنجاب ولى العهد فقط، ولى العهد ليس إلا.

ورفض الشاه شروط الإمبراطورة.

رحيـــل

وعندها تركت الإمبراطورة إيران كلها.

ذهبت ثريا إلى كولونيا بألمانيا، لتعيش مع أمها «إيڤا كارل»، ووالدها سفير إيران فى ألمانيا (الغربية وقتئذ).

وتركها الشاه بعض الوقت علها تهدأ نفسيًا، وتفكر فيما عرضه عليها من حل وسط.

ولكن ثريا رفضت ورجع مبعوث الشاه إليه برأى الإمبراطورة: «إننى

زوجة قبل أن أكون إمبراطورة، وإذا فقدت اللقب الأصلى (تقصد لقب الزوجة) فأنا لا أريد أن أحتفظ بالظل، ولا أريد الاحتفاظ بلقب ميت»، «إننى افضل الا أكون زوجة أو إمبراطورة على أن أكون نصف زوجة فقط للزينة».

وجاء آخر مبعوث إلى ثريا بالرد الحاسم، قالت ثريا: «إنها مستعدة لأى تضحية فى سبيل بلدها إيران، وفى سبيله هو شخصيًا وفى سبيل احتفاظه بعرشه وملكه».

واجتمع مجلس البلاط الإيرانى بدعوة من الشاه لبحث مسألة وراثة العرش وبعد الاجتماع نفى المتحدث الرسمى باسم البلاط ما قيل من أن الشاه سيتخذ زوجة أخرى بجانب ثريا.

نهايـــة

ويوم ١٣ فبراير ١٩٥٨ أى بعد ٧ سنوات من الزواج.. قام الشاه بطلاق إمبراطورته ثريا.

ويوم ١٤ كان ينعى حبه من إذاعة طهران وهو يبكى.

«إننى مازلت أحبها وسأظل أحبها إن مستقبل بلادى ووراثة العرش أرغمتنى على الانفصال عن زوجتى العزيزة، لكن قلبى مازال يحبها».

«لقد اتخذت فى حياتى قرارات عصيبة، وواجهت ظروفًا قاسية، ولكن أقول لكم: إن أصعب قرار اتخذته حتى الآن هو قرار طلاقى من ثريا وأقسى لحظة واجهتها هى اللحظة التى أعيش بعيدًا عنها».

وفى الشوارع كانت النساء جميعًا تبكين وكثير من الرجال.

وسجل التاريخ أحداث مأساة جديدة من مآسى عرش الطاووس.

هدية الطلاق

وكانت هدية الطلاق أن تحتفظ الإمبراطورة المطلقة بلقب «الأميرة الملكية».

وأن تحتفظ بجميع مجوهراتها الشخصية على الرغم من أن مجوهرات التاج الإيرانى يجب أن تبقى فى إيران.

وأن تحصل «الأميرة الملكية» ثريا على مبلغ ٥٠ ألف دولار سنويًا، حتى تتزوج.

وفى الأيام التالية أُقيمت للشاه حفلات عديدة مرحة، لينسى ثريا، ولكنه لم يكن يمكث فى إحداها إلا بضع دقائق، ينظر خلالها إلى الباب، وكأنه يتوقع أن تدخل ثريا فى أية لحظة.

وبعد أيام سافر إلى ساحل بحر قزوين لقضاء فترة استجمام، أو ربما يعيد ذكرى أيامه «الحلوة» مع ثريا.

الغى رحلته إلى مناطق حقول البترول «خوزستان»، وألغى احتفالات رأس السنة الإيرانية رغم أهميتها.

كان قد أصيب بانهيار عصبى.

كما انهارت ثريا على الجانب الآخر، وصحبتها أمها فى رحلة نسيان حول العالم، لعل وعسى.

ويبقى الحب

وكان آخر ما كتبه الشاه لثريا.. بعد أيام من الطلاق، برقية نشرتها إحدى صحف لندن.

«ثريا.. أحبك من كل قلبى انتظرينى عامًا أو عامين، حتى أنجب وريثًا

للعرش، أعدك بعد ذلك أننى سأتخلى عن العرش ونبدأ حياتنا معا من جديد.. تأكدى أننى على استعداد للتنازل عن العرش من الآن إذا لم تقبلى الفكرة».

ولكن ثريا لم ترد، لا على هذه البرقية، ولا على الخطابات الكثيرة التى أرسلها بعد ذلك.

ولكن ثريا تتصل به فى نيويورك كثيرًا، عندما كانت تعالج هناك وبعد سنوات من فراقهما وأيضا بعد زواجه من «فرح ديبا».

ومرة أخرى فى مستشفى المعادى... قبيل وفاته بأيام.. وكانت على استعداد أن تأتى لزيارته، ولكن.

ورغم الحب

ورغم الحب الشديد.. والذى كان مضرب الأمثال بين الشاه والإمبراطورة ثريا..

إلا أنه تزامن معه وللعجب الشديد سقطة للشاه ..

اسمها «جيتى ميلينير» من علية القوم الأثرياء فى طهران وزوجة ضابط برتبة عالية.

وكما وصفت..

«كنا جزءًا من البلاط الإمبراطورى»، ثم تتحدث عن لقاءاتها الغرامية مع الشاه فى بيت ريفى منعزل بعيد، خصصه الشاه للقاءاته الغرامية.

■ ■ ■

السحر فى القصر



■ ■ وكانت تاج الملوك قد تعدت السبعين من عمرها، وفكرت فى الزواج وثار الشاه، ولكن كيف أقنعت الإمبراطورة الملكة بهذه الفكرة وماذا كانت تهدف من ورائها؟

فرح ديبا الثالثة والأخيرة

بعد أن تم الطلاق بين الشاه وثريا حبيبته الأثيرة، لم يكن راغبًا فى سرعة البحث عن عروس جديدة.

ولكن الحاجة التى دعت إلى طلاق الإمبراطورة ثريا هى نفسها التى دعت من جديد إلى سرعة البحث عمن تأتى بولى للعهد.

ومن جديد تقاطرت الصور والمعلومات عن الجميلات الفاتنات من الإيرانيات على القصر الإمبراطورى.

وكان الطبيب أصفنديار ديبا باعتباره أحد رجال القصر قريبًا من أردشير زاهدى.. زوج الأميرة شاهيناز ابنة الإمبراطور محمد رضا بهلوى.. فعرض عليه التوسط لتزويج ابنة أخيه.. فرح ديبا للشاه.

فلما كانت فى طهران قدمها عمها إلى أردشير زاهدى لتنفيذ ما سبق واتفقا عليه وقدمها أردشير إلى زوجته الأميرة شاهيناز التى دعتها إلى بيتها لزيارتها.

مقابلـــة

ذهبت الطالبة فرح ديبا إلى موعدها مع الأميرة شاهيناز.. ولم تكن تدرى أن المدعو الثانى إلى اللقاء هو الشاه نفسه، وأنه هو صاحب الفكرة فى هذه الدعوة بعد أن حدثته ابنته طويلاً عنها.

وطال اللقاء.. وتكرر.

وكانت اللقاءات تقرب الشاه أكثر وأكثر من الفتاة الصغيرة التى فى عمر ابنته، والتى لم تكن أحلامها مجرد أحلام تسمو إلى أن تجلس مع الشاه.. أما الآن فالموقف مختلف تماما.

خطبـة

وخلال أسبوع كانت فرح ديبا تعود إلى باريس، لتنتقى كل غالٍ وثمين من معروضاتها، وتعود إلى طهران لإعلان الخطبة فى نوفمبر ١٩٥٩.. فى حفل اقتصر على عائلتى العروسين، وبعض الشخصيات المهمة.

الزفـاف

وسريعًا ما تمت إجراءات الزفاف فى أواخر ديسمبر ١٩٥٩.

ليلة أخرى من ليالى ألف ليلة وليلة الأسطورية فى طهران، يحضرها ٤٠٠ مدعو وفى اليوم التالى كان العروسان فى «بهلوى» وهى قرية صغيرة على بحر قزوين.

ولى العهد

وفى الشهر الثانى للزواج جاءتها الأميرة أشرف وطلبت منها أن تعرض نفسها على الطبيب ولم تكن تستطيع إلا أن توافق، رغم الرعب الذى تملكها، ولكن الفحص أعطاها سلاحها الأول فى معركتها الشرسة مع أهل القصر الإمبراطورى بعد الفحص قال لها الطبيب: «أنت حامل يا مولاتى..» وكان انتصارها الأول.

وبعد عشرة شهور من زفافها جاءت بولى العهد فى أكتوبر ١٩٦٠.

دخلت المستشفى للولادة ولم يكن الاهتمام موجهًا إلى الأم، ولا إلى سهولة الولادة أو صعوبتها، بل كان القلق كله فى إجابة السؤال السهل الممتنع.. ولد أم بنت؟

وعندما أفاقت بعد الولادة وجدت الشاه واقفًا عند رأسها، ليقول لها: ولد.. رضا.. على اسم جده.

وتتابع الأبناء

وتتابع الأبناء بعد فيروز رضا ولى العهد، جاءت فرح ناز، ومعناها حنان الفرحة، أو فرحة الحنان فى مارس ١٩٦٣، ثم على رضا فى إبريل ١٩٦٦ على اسم عمه الذى توفى وأخيرًا ليلى فى مارس ١٩٧٠.

وتتابع الإجهاض

وتخلل عمليات الحمل والولادة هذه أكثر من إجهاض، وفى أوقات مختلفة، وكان رأى الأطباء دائمًا أنه لاتوجد أسباب جسمانية لدى الإمبراطورة، ولكنها المسائل النفسية، وبلا شك كان لدى فرح ديبا منها الكثير.

وبلغ عدد مرات الإجهاض خمس مرات متتالية.

عريس للامبراطورة.. الأم

ومن أطرف ما يروى فى هذا الصدد.. إن تفكير الشهبانو هداها إلى أن خير وسيلة للتخلص من المتاعب التى تأتى من جانب الامبراطورة الأم.. تاج الملوك هو أن تتزوج هذه الإمبراطورة، وبالتالى سوف تذهب لتعيش فى بيت زوجها بعيدًا عن القصر، فترتاح مما تسببه لها من متاعب.

كانت تاج الملوك قد تعدت السبعين من عمرها، ومع ذلك غرست الإمبراطورة الصغيرة فرح ديبا الفكرة فى رأسها فراحت تشجعها بحماس.

وفعلاً طلبت الإمبراطورة الأم من ابنها الشاه أن يوافق على زواجها من جنرال سابق فى الجيش الإيرانى.

وثار الشاه بشدة عندما فاتحته أمه فى ذلك، ورفض هذا الطلب رفضًا قاطعًا.

وذكر الأم بأنها أنجبت تسعة أولاد، ولا يليق بها أن تفكر مجرد التفكير فى الزواج فى ذلك السن المتأخرة.

وفشلت الفكرة.

المشعوذون.. فى القصر

وفى هذا الوقت العصيب لجأت الإمبراطورة الشابة إلى السحرة والعرافين، الذين أصبحوا يحضرون إلى القصر الإمبراطورى بالعشرات.

وأيضًا عندما بدأت الثورة تشتد ضد الشاه، وانتشرت المظاهرات ضده، كانت الإمبراطورة لا ترى إلا فى صحبة السحرة والعرافين والمشعوذين لاستطلاع الغيب ومعرفة ما يخبئه القدر.

وكانت هناك ساحرة تتولى إطلاق البخور كل مساء فى حجرات الإمبراطور، وتحت أقدام الشهبانو، عندما تجلس كل مساء بجانب الشاه.

بل والأكثر من هذا أن فرح ديبا أرغمت الشاه على حمل حجاب أعده أحد السحرة، وذلك بعد أن فرضت عليه الصيام ثلاثة أيام، لكى يحفظه الحجاب من الأذى.

وكان جزء من هذا السحر والشعوذة موجه بالطبع إلى حياتها العائلية.. وأمورها الشخصية.

المعركة مستمرة

بعد أن أنجبت فرح ديبا ولى العهد استراحت قليلاً، لقد عاشت قبل ذلك حالة من القلق والرعب والخوف على استمرارها فى القصر، حتى جاء واستراحت قليلاً وليس كثيرًا، برغم ولى العهد، وبرغم السحرة والمشعوذين.

الحسناء چيلدا

وطبعًا لم ترض الأميرة أشرف أن تخرج الشهبانو عن «طوعها».. ولا حتى أن تعاملها معاملة الند للند.. فهى الأميرة أشرف، النمرة السوداء التى تجيد التآمر بكل الأسلحة، وأفضلها «الضرب تحت الحزام» بسلاح «النساء» التى تعلم أن الشاه ضعيف أمامه تمامًا.

لقد فعلت ذلك مرات ومرات وبنجاح، وما عليها.. وقد أرادت إلا أن تجلب المرأة المطلوبة.

وذهبت فى رحلة قصيرة وجاءت بالحسناء رائعة الجمال الأميركية جيلدا وكانت واثقة من أن الشاه سيقع صريع هواها بمجرد أن تقع عينه عليها.

ومقاومـــة

وقد فات الأميرة المتآمرة شىء مهم.. هو أن الشهبانو فهمت الجوانب الخلفية من حياة القصر الحاكم وتمرست فى أموره وأنها قد صار لها.. جواسيسها.. خاصة، مثلما كان لكل من الشاه والأميرة أشرف.

وأخبر جواسيس الشهبانو ميلكتهم بما حدث بل والأكثر من ذلك أتوها بصور الأميركية الحسناء بالبكينى، وأخبروها أنها تتردد بانتظام على ذلك النادى الارستقراطى الذى يجاور القصر الإمبراطورى، والذى يتردد عليه الشاه أحيانا ويقضى بانتظام ساعة من كل يوم وهو يشاهد ما يجرى فيه من خلال المنظار المكبر، خاصة الفاتنات اللاتى يترددن عليه.

وأخبروها أيضًا أن الحسناء الأميركية تجلس على حافة حمام السباحة بالنادى فى مكان يواجه مباشرة وتماما ذلك المكان الذى تعود الشاه أن يجلس فيه للمراقبة، وأنها تقضى فى مكانها هذا طوال اليوم، ولاتتركه إلا لحظات معدودة وأنها دائمًا عارية أو شبه ذلك.

مكر بمكر

وبناء عليه، فكانت تقضى مع الشاه كل الوقت الممكن، خاصة ذلك الوقت الذى خصصه لمراقبة فاتنات النادى وأيضًا شغلته عن أن يذهب إلى النادى كما كان يفعل فى كثير من الأيام.

وأكثر من ذلك أمرت البستانى الذى يشرف على حديقة القصر بأن يزرع نباتًا سريع النمو وأن يضع بداخله أسلاكًا شائكة بحيث يفصل هذا السور تمامًا بين القصر والنادى ويحجب الرؤية بينهما.

ومر أسبوع كامل، ولم يسقط الشاه، وأدركت الأميرة أشرف بحسها التآمرى وبجواسيسها فى القصر ماحدث.

وببساطة أسعفها عقلها الجهنمى بالحل.

وذهبت إلى شقيقها الشاه شاكية إليه من هذا السور الذى أمرت الشهبانو بإقامته، وكيف أنه حجب الرؤية والنور عنها، وجعلها حبيسة الفيلا التى تقيم فيها بجوار القصر، ومنعها بالأخص من الاستمتاع بالمناظر الجميلة فى النادى الرائع.. الارستقراطى المجاور.

ولم تكتف أشرف بالشكوى بل أصرت على أن يأتى الشاه إلى الفيلا ليعاين بنفسه ما فعله السور.

وأن يصعد إلى غرفتها فى الدور العلوى، ليشاهد بنفسه المنظر الجميل الذى يوشك السور أن يحرمها منه، وسقط فى الشرك، فعندما صعد معها.. ناولته المنظار المكبر ونظر فيه، وأمامه مباشرة كانت الحسناء الفاتنة.. شبه العارية.

وأدرك الشاه المنظار قبل أن يسقط من يده..

ولكنه هو نفسه كان قد سقط، وغرق الشاه حتى قمة رأسه فى بحر غرام جيلدا.

مواجهة.. وإصرار

وواجهت فرح ديبا الشاه بما تعلم وللمفاجأة الشديدة لم ينكر، ولم يتراجع بل أصر على ما يفعل، وأكثر من ذلك صار يستقبل عشيقته الأميركية فى القصر، بدلاً من ذهابه إليها متخفيًا.

وكان هذا أكثر مما تحمله الشهبانو، فجمعت أولادها، وذهبت بعيدًا إلى جزيرة «كيش» على الخليج وأصرت أن تقطع كل صلة بالشاه.

وانتشر الخبر، ووصل إلى صحف المعارضة، وهو أكثر ما تعمل له ـ الأسرة المالكة ألف حساب واضطر أن يسافر إلى كيش حيث الشهبانو وأولاده، وأعلن قطع كل علاقته بالأميركية الفاتنة، وعادت فرح ديبا للقصر، وأبعدت الأميركية.. بأمر الشاه.. إلى أميركا.

وسافرت الأميرة أشرف مصطحبة معها المصيبة التى استجلبتها ربما لينسى الناس دورها المخزى فى هذه الفضيحة، وربما لتنسى هى مرارة فشلها، وربما لتجد وسيلة جديدة أكثر فاعلية لقهر الشهبانو عدوتها المنتصرة عليها.

وفى أميركا

وعادت آلام المعدة التى يعانى منها الشاه إلى الظهور، وألزمت الشاه الفراش، ونصحه الأطباء أن يعرض نفسه على بعض مشاهير الأطباء فى أميركا وعلم الرئيس الأميركى فى ذلك الوقت ـ ريتشارد نيكسون ـ بهذا الأمر.. فأرسل إلى الشاه دعوة لزيارة أميركا.. ينزل خلالها ضيفًا عليه وسافر الشاه.. والشهبانو.

وفى حفل الاستقبال الذى أقيم للشاه، استقبل أفراد الجالية الإيرانية فى أميركا، وللمفاجأة كان بينهم عشيقته جيلدا، وكانت الإمبراطورة فرح

ديبا قد اعتذرت عن حضور حفل الاستقبال هذا، ولكنها علمت وفورًا كيف استقبل زوجها الشاه عشيقته الأميركية، وثارت ثورة شديدة سمع صداها فى أماكن كثيرة ومنها إيران.

وطلبت الشهبانو أن يعد لها جناح منفصل عن جناح الشاه، والذى اعتصمت به ولم تقابل أحدًا أو تشترك فى أى احتفال طوال المدة المتبقية من الزيارة.

تطلب الطلاق

وعاد الشاه إلى طهران وأصرت هى أن تذهب إلى سويسرا.. وأرسلت من هناك تطلب الطلاق، هى هذه المرة تطلب الطلاق المستحيل، وتم الصلح بعد، وعادت إلى طهران.. ولكن بعد أن سجلت هدفًا ثانيًا أكيدًا فى مرمى غريمتها.. أشرف بهلوى.

النادى سيئ السمعة

وبعدها منعت الإمبراطور أن يذهب إلى هذا النادى الأرستقراطى سيئ السمعة، حيث كان معروفًا أن لشاه يذهب إلى هناك ـ قبل زواجه من فرح ديبا ـ ويجلس فى مكان يسمح له بمراقبة المستحمين والمستحمات فى حمام السباحة، ثم يستدعى أحد أفراد الحرس الذى يسرع إليه ويشير إلى إحدى الحسناوات اللاتى يسبحن.. ويتجه الشاه إلى القصر وبعد دقائق، يتبعه الحارس ومعه الحسناء التى أشار اليها الشاه، لتقضى ليلتها فى القصر.

وغالبًا ما كان الشاه ينتقى صيده من غير النساء الإيرانيات، تفاديًا للمشاكل، وكانت الكثيرات يرفضن من البداية، فلا بأس فهناك الكثيرات غيرهن.

وكان مشهورًا عن الشاه فى ذلك الوقت ـ حتى وقت زواجه من فوزية وثريا ـ أنه يغير النساء كما يغير ملابسه.

ومغامرة للإمبراطورة

وبالرغم من هذا التشدد والقسوة فى مسائل الغيرة والعلاقات النسائية للشاه، فإنه كانت للشهبانو سقطة.

كانت الإمبراطورة فى كلية الفنون الجميلة بفرنسا وكان من الطبيعى أن يكون لها زملاء وزميلات.

وكان من الطبيعى أيضا أن تنتهى علاقتها بالجميع بعد أن تزوجت وأصبحت إمبراطورة.

ولكن كان هناك شاب نرويجى من بين هؤلاء الزملاء، لم يفهم هذه الحقيقة؛ لأنه كانت له قصة حب معها كادت تتحول إلى مشروع زواج.

زار هذا الشاب إيران وذهب إلى قصر والدة فرح ديبا وطلب منها أن يراها باعتباره «زميلاً» قديمًا، وأنها ستسر لرؤيته، وستستعيد معه ذكريات الدراسة.

وفعلاً ذهبت الشهبانو إلى قصر والدتها وقضت بعض الوقت مع هذا الشاب.

وكان من المؤكد أن يعلم الشاه بكل «لفتة» من زوجته وعلم بأمر الشاب والزيارة.

وواجهها الشاه بالخيانة وطلب من رجاله أن يعدوا أوراق طلاقه منها.

وثارت الشهبانو فى وجه الشاه، وأكدت له أنه هو شخصيًا الرجل الوحيد الذى دخل قلبها، وأنه هو شخصيًا حبها الكبير وأن الشاب النرويجى زميل دراسة، وليس له أى وزن أو أى تأثير فى حياتها..

وذهبت هى لتعتكف فى جناحها الخاص باكية.

أما الشاب فقد نصحته والدة فرح ديبا أن يلجأ إلى سفارة بلاده فى

طهران وفورًا وتولت السفارة حمايته، حتى تمكن من مغادرة إيران.

وحولت الشهبانو؛ الذكية القضية المثارة إلى قضية جديدة تمامًا.

فإنها ليست غاضبة؛ لأن زوجها اتهمها بالخيانة؛ بل لأنه شك فى حبها له هو شخصيًا وعواطفها نحوه.

وهذا الموقف بلا جدال يستثير غرور أى رجل فى الدنيا.

وعندما حاولت الإمبراطورة الأم، والأميرات فى الأمر رفضت أن تصالح الشاه الذى لايقدر عواطفها نحوه.

وسعى الشاه نفسه إلى صلحها.

وانتهت أخطر أزمة بين الشاه والشهبانو.

وواحدة تكفى.

معانــاة

وعادت الشهبانو إلى حياتها العادية.. أقصد إلى معاناتها الدائمة فى داخل القصر حيث المؤامرات والدس والوقيعة واختفاء كل مظاهر الإنسانية.. معاناة فى كل شىء.

أما خارج القصر.. فحدث ولا حرج صار مصيرها وتاريخها هو مصير الشاه وتاريخه.

وظلت تعانى.. حتى بعد أن تركها الشاه.. ورحل عن الحياة.

■ ■ ■

ثورة ١٩٦٣



حـاول الشـاه تفـتـيت قـوة آيات الله، فكانت النتـيـجـة زيادة المواجـهـة.

وحـاول الإصـلاح فـكـانـت ثـورة.

آيات الله الصدام مستمر

كان الصدام بين الشاه وآية الله أبو القاسم كاشانى عام ١٩٥٣ تابعًا لصدام الشاه مع الدكتور مصدق.

وعندما انتهى التحالف بين مصدق والكاشانى إلى صدام حاد بينهما، حتى أن آية الله الكاشانى أصدر بيانا.. باعتباره رئيسًا للبرلمان الإيرانى فى ذلك الوقت ضد مصدق، كان مما جاء فيه لمصدق: «إن الأجيال القادمة ستلعنك».. كان ذلك إيذانًا بخفة حدة الصدام على وجهه الآخر.. أى بين الكاشانى والشاه.

خفت حدة الصدام، ولكنه لم ينته، بل ظلت العلاقة متوترة.

أهـداف

وكانت الحركة الدينية متمثلة فى الملالى أو آيات الله قد «حفرت» لنفسها خطًا ثابتًا لوجه العلاقة مع الشاه من ناحيتها وهو المعارضة المستمرة الدائمة.

وفى المقابل كان هدف الشاه غير المعلن، هو إضعاف هذه الحركة بكل الوسائل، وأولها إشاعة الفرقة بين أطرافها، وإضعاف أو محاولة الحد من مركز مدينة «قم» الإسلامى، وتقليل الارتباط بها ونقل مركز الحركة الإسلامية منها إلى خارج إيران.

ثم بعد ذلك كانت المواجهة بين الشاه والحركة الدينية تتراوح بين اللين والقمع الشديد، حسب ما تقتضيه الظروف وحسب اتجاهات الحركة الإسلامية هى الأخرى من الاستسلام والمواجهة الضيقة.

تعدد القيادات

وقد نجح الشاه فى تفتيت القيادة الإسلامية.

فعندما مات آية الله البروجودشى عام ١٩٦١ كان يحتل منصب.

«مرجع التقليد الأعلى الأوحد» وهو أعلى منصب، شيعى ولم يتم تعيين فرد واحد مكانه فى هذا المنصب، فقد وزعت مهام المنصب على ثلاثة رجال لا رجل واحد كما هو مفترض.. آية الله شريعت مدارى.. وآية الله مهرهادى.. والخومينى الذى لم يكن قد حصل بعد على لقب.. آية الله.

ولكن هذا التفتيت لم يكن إلا تفتيتًا شكليًا مظهريًا، فرغم أن القيادة الدينية وزعت على ثلاثة أفراد، إلا أن ذلك لم يغير من هدفها الذى «حفرته».

لقد اتفق الثلاثة على ضرورة الاستمرار فى سياسة المعارضة للحكم أى للشاه.

وإن اختلفوا فى كيفية ذلك.. ودرجته.

مجالات المعارضة

وكان مجال المعارضة الخارجية هو تزايد النفوذ الأجنبى عموما.. وخاصة الأميركى.

وانصب مجال المعارضة الداخلية على السياسة الدستورية للشاه، خاصة الخروج على مبادئ دستور ١٩٠٦، وبالذات المادة الثانية منه والتى تنص على:

«تشكيل مجموعة من خمسة من الفقهاء المسلمين، يكون لهم الحق فى مناقشة أى قانون تعتزم الحكومة إصداره».

«ولهؤلاء العلماء الحق فى الاعتراض أو حتى رد أى قانون إذا كان مخالفا للشريعة الإسلامية».

وقد اعتبر آيات الله أن مجرد تعطيل الشاه لهذا النص هو بالذات خروج على مبادئ الإسلام!.

ظهور الخومينى

ووسط هذه المعارضة الدينية المنظمة كانت بداية ظهور الخومينى الذى حدد سياسته منذ البداية فى.. أمرين..

أولهما: هو ضرورة المعارضة الدائمة والمستمرة لكل ما يقول الشاه.. أو يفعل، دون النظر إلى ماهية هذا الأمر.

وثانيًا: هو ضرورة أن تكون هذه المعارضة الدائمة والمستمرة عنيفة جدًا، حتى وإن لم يكن لهذا العنف ما يقتضيه.

ومن هنا وقف الخومينى خطيبًا فى نهاية عام ١٩٦١ فى مواجهة عنيفة مستفزة فى مواجهة الشاه ربما لم يكن لها ما يبررها.

«إن الشعب لايموت وينبغى أن تسير الدولة على الجادة، وإذا لم يسمع الشاه ونظامه فسيعرف من الذى يموت».

«إن الشعب الإيرانى المسلم مستعد لما هو أبعد من المظاهرات والإضراب».

الإقطاعى

كان شاه إيران محمد رضا بهلوى يحاول بين الحين والحين، القيام بعمل يقربه من الشعب.

لقد كان الشاه.. إقطاعيًا شديد الثراء واسع الملكية للأراضى الزراعية،

فى شعب تمثل الزراعة ٧٥ فى المائة من نشاطات السكان.

فبالمقارنة يمكن أن تقول إن من يملك ١٠٠٠ أو٢٠٠٠ فدان هو رجل إقطاعى، أو عائلة إقطاعية فبماذا نسمى الشاه الذى كان يملك ٢٠٠٠ قرية بمن فيها وما فيها.

فكان توزيع الأرض هو وسيلته للتقرب إلى قلوب شعبه.

سنة ١٩٥٣

حاول أن يفعل ذلك سنة ١٩٥٣ إبان كان مصدق رئيسًا للوزراء..

فاعترض مصدق بشدة.

وربما كان مصدق بذلك يمنع خطوة قد تؤدى إلى زيادة مكانة الشاه فى قلوب الناس، وذلك لأنه هو شخصيًا كان يخطط للحد من سلطات الشاه وشعبيته، تمهيدًا لخلعه واحتلال موقعه.

ولكن مصدق أعلن معارضة منسقة منطقية، فإنه طالما أن توزيع الأرض على المزارعين ليس سياسة عامة للحكومة، فإن من لايستفيدون من أرض الشاه سيجدون من ذلك مبررًا لمناوأة الحكومة.

وطالما أن الحكومة هى التى تتولى جميع أمور الشعب، ومصالحه فليكن التنازل لها.

وهكذا اضطر الشاه للتنازل عن جزء من أرضه للحكومة.

وعام ١٩٥٨

وفى عام ١٩٥٨ قام الشاه بعمل مماثل، وباع بعض أراضيه للمزارعين الذين يقومون بزراعتها فعلاً.

وعام ١٩٦١

وفى عـام ١٩٦١ فكر الشـاه فى قـانون يحـد من سلطة الإقطاعـيـين وسيطرتهم على بعض مقدرات الأمور، بدعوى طيبة طبعًا هـى أن يملك الأرض من يقوم بزراعتها، وهو عمل مماثل لقانون الإصـلاح الزراعى فى مصر.

وقد أسماه الشاه فعلاً: قانون الإصلاح الزراعى وجعله جزءًا من «ثورة بيضاء» يزعم القيام بها.

رأى البروجودشى

وبعث الشاه بالقانون المرفع.. إلى آية الله البروجودشى «المرجع الشيعى الأعلى والأوحد» فى ذلك الوقت يستفتيه فى بعض بنود برنامجه.. «الثورة البيضاء»، خاصة ما يتعلق منها بالإصلاح الزراعى.

وأجاب البروجودشى معارضًا وأشار:

«إن الدول التى طبقت الإصلاح الزراعى كانت قد غيرت النظام الحاكم أولاً تغييرًا جذريًا، ثم أقدمت على الإصلاح الزراعى».

معنى.. ومعنى

وقد فهم الناس أن عبارة البروجودشى تشير إشارة واضحة إلى تجربة الإصلاح الزراعى فى مصر، وأنها كانت إحدى نتائج ثورة ١٩٥٢ فى مصر وليست عملاً من أعمال حكومة قائمة.

ولكن فى رأيى الشخصى أن عبارة آية الله البروجودشى كانت تحمل معنى أعمق من ذلك كثيرًا، وأخطر بمراحل.

وهو أن آيات الله ربطوا بين الإصلاح والتغيير والثورة.

وإن ردهم على الشاه كان يحمل تهديدًا واضحًا له، بأنه إذا كان ولابد من الإصلاح فإنه لابد وأن يسبق ذلك تغيير فى شكل الحكم.

عام ١٩٦٣

ولما كان الشاه لايملك معارضة «المرجع الأعلى».. البروجودشى فكان عليه أن يسكت..

وعاد الشاه فى يناير ١٩٦٣ ليعلن من جديد برنامج «الثورة البيضاء»، الذى أحد بنوده الست الإصلاح الزراعى، والذى والذى ينص هو الآخر على تصفية الإقطاعيات الكبيرة.. ومنها بعض أملاك الشاه طبعًا.

وإقطاعيات كبار الملاك، وأيضا، الأراضى الشاسعة التى وضعت تحت أيدى رجال الدين يديرونها لحسابهم دون معقب ولارقيب.

وطبعًا هب رجال الدين فى مواجهة الشاه، وعلى رأسهم الخومينى.

وعندما دعا الشاه إلى الاستفتاء العام على برنامج «الثورة البيضاء» أو «انقلاب سيفيد» كما أطلق عليها، أصدر الخومينى فتوى دينية بتحريم الاشتراك فى هذا الاستفتاء الذى «يستهدف القضاء على الروح الإسلامية.. وعلى مكانة العلماء المسلمين وأنه بذلك مخالف للشرع الإسلامى».

وطالب رجال الدين بعدم تنفيذ برنامج الثورة البيضاء وأعلن الشاه تمسكه بها، لأن «إلغاء الثورة البيضاء يعنى سقوطه هو شخصيا».

وأعلن الخومينى أن المواجهة من الشيعة فى إيران والشاه مستمرة حتى يتم إسقاط نظامه تماماً وصارت الأمور كلها فى طريق التصعيد.

المدرسة الفيضية

ويستمر عام ١٩٦٣ فى تهيئة المزيد من المصادمات.

ففى مارس من ذلك العام جاءت مناسبة الاحتفال بذكرى استشهاد «الإمام جعفر الصادق».

وفى هذه المناسبة كانت عادة ما تقام «مجالس العزاء» فى المدرسة الفيضية «بمدينة قم»، حيث اعتاد الخومينى أن يلقى دروسه على الحاضرين.

وبالرغم من أن المدارس الدينية تعد حرمًا آمنًا.. يجب ألا يحدث فيه اى نوع من التجاوز أو العنف.

إضافة إلى هذه المناسبة الدينية الجليلة فى النفوس المتمسكة بمبادئ الشيعة.

إذا بجنود الشاه يهاجمون الحاضرين فى مجالس العزاء، وأيضا يتصدون لآلاف المواطنين الزاحفين إلى «قم» من جميع أنحاء إيران، للاحتفال بهذه المناسبة.

وكانت المواجهة من القسوة الشديدة، بل الوحشية التى أدت إلى سقوط العشرات من القتلى والمئات من الجرحى.

وملأ البيان الذى أصدره الخومينى فى هذه المناسبة أنحاء إيران كلها:

«إن النظام كلما تمادى فى جرائمه فضح نفسه أكثر، وهذا نصر عظيم للإسلام والمسلمين».

«إن انتهاك المقدسات وقتل العلماء والمسلمين تحت التعذيب، والهجوم على المدرسة الفيضية والجامعات هو من ثمار (الثورة البيضاء)».

«إن الحملة المسعورة التى شنها رجال الشرطة والكوماندوز.

ومأمورو الدولة على الجامعات وهجومهم على العلماء وطلبة العلم تعيد إلى أذهاننا تلك الصورة البشعة، التى مرت بتاريخ البشرية أيام الغزو المغولى والتتارى، غير أن المغول كانوا يغزون البلاد الأجنبية بالنسبة إليهم، وأن هؤلاء الجلادين يغزون أبناء شعبهم العزل ويعتدون على العلماء والطلبة فى يوم شهادة الإمام الصادق».

مناسبات

وجاء يونيه فى السنة الميلادية ١٩٦٣ ليوافق المحرم من السنة الهجرية، والذى يوافق ذكرى خروج الإمام الحسين بن على ﵁ وأرضاه.. حفيد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ.. خروجه عن صمته وهدوئه فى مواجهة يزيد بن معاوية، حيث نادى الحسين ﵁ «الموت بشرف خير من الحياة بذلة».

خرج يسعى للشهادة.. وللمنزلة التى وعد بها والتى بشره بها حبيب الرحمن ﷺ.. حين قال عن السبطين الشريفين.. الحسن والحسين.. «سيدا شباب أهل الجنة».

خرج فى طلب الشهادة، ونالها يوم عاشوراء.

أيام الذكرى

وتعتبر هذه الأيام أيامًا مقدسة عند الشيعة ويرمزون إلى هذه الأيام إلى ذكرى انتصار الغاضب الظالم الطاغى على الحرية والشريعة.

وعادة ما تقام فى هذه الأيام احتفالات كبرى فى جميع محافل الشيعة خاصة فى «قم» المدينة المقدسة الإيرانية.

وكان رجال الدين الإيرانيون يستغلون هذه الاحتفالات للهجوم على الشاه ومعارضة كل ما يأتى به.

وتحسبًا لهذا الأمر استدعى رجال الشاه.. رجال «السافاك» البشعون علماء الدين وخطباء المساجد من جميع أنحاء إيران وأمروهم الا يتناولوا الأمور الداخلية وألا يعرضوا بنظام الشاه وسياساته.

وفى المقابل قام الخومينى ـ عندما علم بذلك ـ بجمع هؤلاء مرة أخرى وأمرهم بعدم الالتزام بتوجيهات لبقصر الحاكم وأن يستمروا فيما اعتادوا عليه من هجوم على الشاه وأنه لافائدة من محاولات الإصلاح التى يقوم بها، وأنه لابد من إسقاط حكم الشاه، وتحطيمه تحطيما تاما.

يوم عاشوراء

وجاء يوم عاشوراء وأقيمت الاحتفالات فى كل أنحاء إيران، وتوافدت الآلاف إلى «قم» قلب الاحتفالات.

ووقف الخومينى ـ كعادته ـ متحديًا الشاه، ولكنه فى هذه المرة زاد فى الهجوم بالشكل الذى ينفذ إلى نفوس الجموع، ويستفيد من هذه المناسبة.

وقف فى الجموع المحتشدة ليشبه عصر الشاه محمد رضا بهلوى، بعصر يزيد بن معاوية، وجرائم يزيد و بشاعتها، بممارسة الشاه من نظم الحكم وطرائقه.

وكان أقصى هجوم على الشاه:

«نحن نعيش فى عصر عاشوراء» «عصر هذا الشاه.. يزيد العصر الحاضر».

وكانت الخطب فى المساجد فى كل أنحاء إيران على نفس النسق.

وفى «قم» وغيرها، كان الناس يخرجون من المساجد، يطوفون الشوارع فى طول إيران وعرضها وهم يهتفون:

«ليسقط يزيد.. ليسقط الدكتاتور».

وقبض على الخومينى فى «قم».. ونقل مسجونًا إلى طهران، ومعه ٢٠ رجلا من مساعدية..

وفرضت الأحكام العرفية فى إيران كلها.

اليوم الموعود

٥ يونيه

وفى اليوم التالى ليوم عاشوراء والذى يوافق ٥ يونيه ١٩٦٣.

كانت النفوس الثائرة على ثورتها والنفوس التى لم تكن قد ثارت.

أصبحت على أتم استعداد للثورة وكان كل شىء معدًا للاشتعال.

وشاع خبر القبض على الخومينى ورفاقه.

وانفجرت الجماهير ولم يعد ممكنًا السيطرة على أى شىء.

سارت الجماهير فى كل إيران من أقصاها إلى أقصاها تهتف: «الموت للشاه» وتحطم ما تستطيع أن تحطمه، وتحرق ما تستطيع أن تحرقه، وأيضا تقتل من رجال الحكومة من تصادفه.

وفى طهران ربما لأول مرة اجتاحت المظاهرات الضخمة الغاضبة كل شىء واشتعلت الحرائق خاصة فى قلب إيران فى منطقة السوق، وهاجم الثائرون وزارتى الاقتصاد والداخلية.. ومبنى الإذاعة.

وخرجت المظاهرات من جامعة طهران متحدية قرارات حظر التجول.

باختصار صارت طهران العاصمة ساحة قتال فعلية فما أدراك بباقى البلاد البعيدة عن القضية القوية للحكومة.

القتلى بالآلاف

وعلى قدر الاضطرابات وعنفها كان التدخل..

قاد الشاه بنفسه «العمليات العسكرية» لقمع المظاهرات.

ونزلت قوات الجيش لتحمى الأماكن والبنايات العامة وتواجه الجماهير الثائرة بالرصاص مباشرة وبكثافة..

وتناثرت الدبابات هنا وهناك..

وسقط الآلاف من الجرحى والقتلى..

وقيل: إن حصيلة هذا اليوم الرهيب هى ما لايقل عن ١٥ ألف قتيل..

وعشرات الآلاف من الجرحى.

وانتهت ثورة الخامس من يونيه.

■ ■ ■

احتفالات الطاووس



■ ■ وتصور الشاه أن هذه المظاهرات سوف تقتحم عليه القصر وقال للإمبراطورة: «لايجب يا فرح أن نقع فى يد هؤلاء الدهماء» ثم ناولها بضع حبيبات فماذا حدث؟.

الثورات الجديدة إرهاصات

بعد القضاء على ثورة ١٩٦٣ الثورات الجديدة.. إرهاصات استشعر نظام الشاه القوة فى نفسه، وزادت ثقته من تمكنه من السيطرة على مجرايات الأمور.

فعاود ـ ربما بشكل أفظع ـ الطغيان.. والاستهتار بمقدرات الشعب.

احتفالات الطاووس

وشهدت إيران الاحتفالات الأسطورية لذكرى ٢٥٠٠ سنة على قيام عرش الطاووس ومملكة الملك قورش.. منشئ دولة الفرس.

تلك الاحتفالات التى أنفق عليها الشاه ٤٠٠ مليون دولار وشهدها جمع غفير من ملوك ورؤساء الكثير من الدول..

والتى تناولت أجهزة الإعلام فى العالم أجمع تفاصيلها.. وترتيباتها على فترة طويلة من الزمن.

تناقض شديد

وقد جرت تلك الاحتفالات وما فيها من بذخ أسطوى فى مكان لا يفصله سوى بضعة أمتار عن «أزقة» طهران «وشوارعها شديدة الضيق»، حيث الفقر والجوع والمرض التى تتناوب دوراتها على الغالبية من الشعب.

مظاهرات مستمرة

وفى اليوم التالى مباشرة لانتهاء هذه الاحتفالات ورغم القبضة الحديدية لأجهزة الأمن، قامت المظاهرات والاضطرابات فى أنحاء إيران..

وكانت هذه المظاهرات من العنف والشدة، خاصة فى طهران، وبالقرب من القصر إلى الدرجة التى أقلقت الشاه نفسه، حتى تصور أنها النهاية.

انتحرى يا فرح

وحدث أن كانت إحدى هذه المظاهرات من العنف والقرب من القصر حتى تصور الشاه أنها لابد أن تقتحم عليهم القصر.. رغم الحراسة الشديدة وكل الاحتياطات.

وبلغ الانزعاج بالشاه أن قال للإمبراطورة:

«لا يجب يافرح أن نقع فى يد هؤلاء الدهماء»

ثم ناولها بضع حبيبات وهو يكمل:

«إذا اقتحموا القصر فتناولى هذه».

كان المفهوم أن تنتحر.. الشهبانو..

فانتحرت الأميرة ليلى

وكانت الأميرة الصغيرة ليلى تشهد هذا الموقف الحزين بين أبيها وأمها وكانت هى الأخرى قد أخذ منها الخوف والجزع كل ما أخذ، وها قد بلغت الأمور أسوأها فالشاه يقول «انتحرى يا فرح».

انسحبت ليلى الصغيرة فى هدوء من المشهد.

وفى حجرة أخرى شاهدها شقيقها تفرغ فى جوفها كمية من الحبوب وتسقط على الأرض شبه ميته.

اتضح إنها حبوب منومة.

انتحرت ليلى.

طالما أن الموقف يقتضى ذلك، كما فهمت.

وتم إنقاذ الأميرة الصغيرة من الموت بأعجوبة.

الصدام الأخير



■ ■ انتهت الاغتيالات السياسية.

فهل كان ذلك دليلاً على الهدوء.. ؟! أم تمهيدًا للصدام النهائى؟!.

ولم تكن المظاهرات وحدها هى التى تنفجر فى أبسط مناسبة، بل أن الاغتيالات أيضا ظلت مستمرة، مستهدفة رجالات الشاه خاصة رؤساء الوزارات.

واغتيالات مستمرة

وظلت الأمور على ذلك حتى بداية عام ١٩٧٧ التى هدأت فيها الأمور فجاة، وكفت الاغتيالات، حتى المتوقع منها.

وكان الهدوء فى حد ذاته أمرًا يدعو للتفكير والقلق.

تطورات اقتصادية

وشهد عام ١٩٧٧ تطورات اقتصادية مهمة، كانت لها فى المقابل.

انعكاسات سياسية شديدة الخطورة.

كانت سياسية الإصلاح الزراعى التى أعلنها الشاه سنة ١٩٦٣ والتى من بينها الحد من الملكية، قد أدت إلى توزيع حوالى ٥٠٠ مليون فدان من أراضى الإقطاعيين على حوالى ٢ مليون مزارع.. فصار الإقطاعيون فى جانب المعارضة.

ثم جرت حركة الإصلاح الإدارى لجهاز الدولة، ومُنع العاملون فى الدولة من مزاولة الأنشطة التجارية المختلفة، ففضل أكثرهم الاستقالة والاشتغال بالعمل الحر، وصار رأس المال فى جانب المعارضة.

ثم كانت الطامة الكبرى.. الأرض الزراعية التى فى أيدى رجال الدين.. وتم رفع أيديهم عنها.

وعندما ثاروا فى وجه الشاة قطع عنهم مخصصاتهم المالية شديدة السخاء التى كانت تمنحهم إياها الحكومة.

وهكذا انتهى عام ١٩٧٧ وقد بذرت على الأرض الإيرانية كل بذور الثورة.

متوالية.. صدامية

وبدأ عام الثورة ١٩٧٨ بالاضطرابات الدينية التى كانت عادة تقوم فى «قم» ففى يوم ٧ يناير منه سقط فى الاضطرابات الشديدة ستة من القتلى برصاص البوليس، وذلك خلال الاحتفالات بذكرى المعصومة.. أخت الإمام الرضا.

وحيث تفرض تقاليد إيران، فإن على أقارب وأصدقاء الميت.. أن يجتمعوا على قبره فى اليوم ١٤ من وفاته ثم هناك أيضًا يوم الأربعين.

وبذلك صار هناك ما يمكن أن نسميه «متوالية صدامية مستمرة»، بمعنى أن هذه المناسبات التى يجتمع فيها الناس لذكرى موتاهم كانت أيضًا مناسبات للصدام مع أجهزة الأمن، وسقوط المزيد من القتلى.

يوم الجمعة «الأسود»

واستمرت الحالة هكذا حتى كان الصدام فى طهران يوم ٨ سبتمبر، والذى يطلقون عليه يوم الجمعة الأسود، والذى أعلنه الخومينى فيما بعد يومًا يحتفل به تحت اسم «يوم الحداد المقدس».

فى هذا اليوم انفجرت مظاهرات شديدة فى مدن كثيرة، أعنفها فى العاصمة طهران، وكان حظر التجول مفروضًا منذ فترة.. قام الآلاف بمواجهة مع الشرطة، أسفرت عن عدد كبير من القتلى والجرحى والمعتقلين.

قالت البيانات الرسمية: إن هناك ٨٥ قتيلاً ومائتى جريح، وقالت دوائر الثورة: إن القتلى والجرحى بالآلاف.. الآلاف الكثيرة، بالإضافة إلى ٣ آلاف معتقل.

أكتوبــــر

ويأتى أكتوبر ليشهد بداية النهاية الحقيقية لحكم الشاه..

خرجت المظاهرات يوم ٢٧ فى يوم ذكرى ميلاد الشاه فى شوارع المدن الإيرانية.

المتظاهرون يرتدون الملابس السوداء، يضربون بأيديهم على صدورهم، ويطلقون الشعارات المناهضة للشاه، ويشعلون النيران فى المنشآت والمبانى الحكومية، .ويصطدمون بقوات الأمن فى كل مكان.

وكان لطهران العاصمة.. النصيب الأكبر من هذه الاضطرابات، ويومها أشعل المتظاهرون السفارة الإيطالية اعتقادًا منهم أنها السفارة الفرنسية وذلك احتجاجًا على موقف فرنسا من الخومينى.

وإعلان الإضراب

وفى اكتوبر أيضا أعلن الإضراب فى قطاع البترول، الذى تبعه اضطراب فى كل القطاعات الأخرى وارتفاع فى الأسعار.

حرب الكاستات

وتوقفت الحياة الإيرانية تقريبًا ووسط كل هذا بدأت حرب «الكاستات» أى شرائط التسجيل، والتى كانت تبدأ عادة بموعظة دينية، ثم تبدأ فى مطالبة الناس بالنزول إلى الشارع للثورة على حكومة الشاه «التى لابد من سقوطها، حتى تنتهى الحالة السيئة السائدة».

ونجحت هذه الحرب.. كان الشخص يتصور أنه بزوال الشاه يشرق اليوم التالى بالحل للمشاكل اليومية التى باتت مستعصية.

حكومــات

وعلى المستوى السياسى كان الشاه يحاول تدراك الموقف بحكومات سريعة التغيير قصيرة العمر.

وحاول أن يشكل حكومة ائتلاقية ترضى جميع الاتجاهات، ولكن من حوله من الساسة كانوا قد استشعروا أن أميركا قد تخلت عن الشاه، وأنه لن يبقى طويلاً على العرش فرفض الكثيرون، وقبل شاهبور بختيار.

كل الاتجاهات إلى باريس

وصارت كل الاتجاهات إلى باريس كما هو معروف وشائع، حيث الخومينى والشاه أيضا حاولا الاتصال، ولكن..

وأميركا.. توصلت فعلاً إلى قناة تفاهم، وأيضا حلف الأطلنطى..

تسهيلات أميركية

ولما اطمأن الخومينى إلى وقوف الجيش على الحياد، وبالتآمر الأميركى، بدأت كل الأمور فى التغير والتطور السريع المعلن الذى لم يعد خافيا على أحد.

جنرال التآمر فى طهران

فى أوائل يناير ١٩٧٩ وصل إلى طهران سرًا الجنرال روبرت هويزر.. نائب القائد الأعلى للقوات الأميركية فى أوربا.

لم تكن المرة الأولى التى يزور فيها إيران للعمل المهم.

أما هذه الزيارة فقد كانت سرية، حتى على الشاه..

وعلم أنه خلال وجوده السرى قد أجرى اجتماعات ولقاءات مع العديد

من قادة الجيش الإيرانى، وعلى رأسهم الجنرال «جاراباجى» رئيس أركان حرب الجيش الإيرانى.

ولما حاول الشاه أن يعلم شيئًا عن طبيعة الاتصالات التى يجريها هويزر مع جنرالات الجيش الإيرانى، ادعى الجميع أنهم لايعلمون عنها شيئًا.

أخيرا... مقابلة

وأخيرًا.. وبعد أن أتم الجنرال هويزر ما جاء من أجله سرًا إلى طهران، ذهب فى رفقة السفير الأميركى فى طهران وليام سوليفان لمقابلة الشاه قبل أسبوع واحد من مغادرة الشاه طهران.

وحاول سوليفان خلال المقابلة أن يفهم الشاه أن هناك تعليمات من واشنطن له بإبلاغه أنه أصبح من الخير للجميع أن يغادر الشاه طهران.

وأن مسألة رحيله أصبحت مسألة ساعات وليست أيام.

قمة غريبة

وفى هذه الأثناء كانت تعقد قمة غريبة فى «جواديلوب» بين رؤساء أميركا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا (الغربية فى ذلك الوقت).

وفى هذا الاجتماع كان قرار «الأصدقاء» الحميمين للشاه بإبعاده عن عرشه.

وبعدها أعلن سايروس فانسى وزير الخارجية الأميركى من واشنطن دون استشارة أو اتفاق مع أحد «أن شاه إيران سيغادر بلاده فى إجازة قصيرة».

وفى يوم ١٦ يناير ١٩٧٩ غادر الشاه إيران فى هذه الإجازة القصيرة

التى لم تنته أبدًا.

تحييد الجيش

وقد نجح هويزر خلال الأيام التى قضاها سرًا وعلنا فى طهران أن يقنع جنرالات الجيش الإيرانى بعدم تأييد شاهبور بختيار الذى عينه الشاه رئيسًا للوزراء كمحاولة أخيرة لإنقاذ العرش وإيران من الانهيار.

جارباجى وخيانة

وقد نجح هويزر استمالة جارباجى رئيس الأركان الذى ولا شك استخدم سلطانه وسلطاته لمنع أى إجراء عسكرى ضد الخومينى، وهو ما عجل بالمواجهة وأنهاها بسرعة لصالحه.

إعدامات

وكان لنجاح التحييد نتيجة مفاجئة ومذهلة لهويزر ولجنرالات الجيش سواء بسواء.

ذلك أن النظام الجديد بعد أيام قلائل من وضع يده على الأمور، بضمان أول وأكيد هو نجاح هويزر فى تحييد الجيش، كان يقوم بإعدام جنرالات الجيش الإيرانى الواحد تلو الآخر.

وفأرميت

وأظهرت المحاكمات الصورية السريعة للجنرالات والتى كان الحكم يصدر فيها مقدمًا وقبل مجرد انعقادها وهو الموت فى الشارع وهو الغرض الخفى لمهمة هويزر.

فعندما سئل الجنرال ربيع قائد سلاح الطيران الإيرانى فى عهد الشاه عن اجتماعاته مع هويزر ومهمة هذا الأخير فى طهران قال وبالحرف الواحد:

«لقد قذف بالشاه خارج إيران مثل فأر ميت»

احتياج للجيش ولكن..

على أن نجاح هويزر فى تحييد الجيش لم يكن هو كل الخير على المصالح الأميركية والتدخل الأميركى.

بل هو على العكس تمامًا.

فبعد عودة الخومينى إلى طهران فى أول فبراير سارت الأمور على غير هوى أميركا.

واتضحت الاتجاهات الفعلية للثورة، وهى معاداتها الشديدة لكل ما هو أجنبى، وبخاصة «الشيطان» أميركا.

وعادت واشنطن لتبحث وبجدية تامة إمكانية تدخل الجيش، ولكن الجيش كان قد انتهى فعلا.

وجنت أميركا حصاد الشوك الذى زرعته هى بيد جنرالها المتآمر هويزر.

وأزمة الرهائن

ولم تكن الحسرة هى كل ما جنته أميركا.. بل أزمة الرهائن.

وبلا جدال فإن أزمة الرهائن هى نتيجة مباشرة لغياب القوة العسكرية فى مواجهة الزحف الجماهيرى الإيرانى.

فى أوائل فبراير انسحبت القوة الإيرانية العسكرية التى كانت تحمى السفارة الأميركية، تاركة أمر حراستها للنفر القليل من جنود البحرية الأميركية...

وفى اليوم التالى لانسحاب القوة الإيرانية، يوم ٤ فبراير، قام الطلبة

الثوريون الإيرانيون باحتلال السفارة الأميركية فى طهران محتجزين ٥٤ رهينة لتستمر أزمة الرهائن طويلا.

الفأر المذعور

وبالطبع كانت أهم شخصية أميركية فى السفارة هو السفير وليام سوليفان، ذلك المستأسد الأميركى الذى كانت كل مهمته فى الأيام الأخيرة أن يزأر فى وجه الشاه.

وكان السفير الأميركى داخل السفارة ساعة احتلالها، وكان من المفروض أن يكون بيد الرهائن.

لولا أنه فر كالفأر المذعور فى حماية إبراهيم يازوى أحد مساعدى الخومينى.

ليصدر بعد ذلك كتابًا يشرح فيه وبالتفصيل مراحل تآمر أميركا على صديقها الشاه الإيرانى.

وعـــودة

وبدأت الثورة العارمة تجتاح إيران كلها، وشكلت حكومة مهدى بازرجان، وبلغت أقصاها مع أواخر يناير، وأعلنت الجمهورية الإسلامية فى إيران فى العشرين من الشهر نفسه، وعاد الخومينى إلى طهران أول فبراير ليستقبل استقبال الفاتحين، وليعلن خلع الشاه نهائيًا.

■ ■ ■

وأخيراً صديق رائع



■ ■ وعندما تخلى الجميع عن الشاه..
برز المصرى الشهم الكريم
واحتضنت مصر الشاه المجروح
مرتين من المرض ومن الأصدقاء.

السادات والشاه

قبل أن أبدأ الكلام عن السادات، أحب أن أنبه وبوضوح كامل أننى هنا لست فى موقف تقييم لسياسة هذا الرئيس الراحل، ولا حتى فى موقف تقييم تصرفاته الشخصية.

وأود أن أقول بوضوح: إننى هنا فقط أتناول جزئية صغيرة جدًا من أمور السادات الراحل وهى علاقته بشاه إيران محمد رضا بهلوى.. الراحل أيضًا، وموقفه من الشاه وهو فى أزمته الأخيرة، والتى تصرف فيها بوضوح وشهامة الرجل المصرى الأصيل، وهذا فقط.

رأى الأميرة أشرف

تقول الأميرة أشرف فى مذكراتها عن الرئيس السادات:

«حينما تخلى الأصدقاء واحدًا وراء الآخر عن شقيقى، ولم يعودوا حتى يعترفون بوجوده وقف السادات مع شقيقى مرحبًا به فى شجاعة، رغم المخاطر السياسية وتنكر جميع الأصدقاء للشاه فى محنته».

ورأى الشاه

وجاء فى مذكرات الشاه رأى أعظم:

«عرفت الرئيس محمد أنور السادات.. رئيسًا لمصر، ثم أصبحنا من أقرب الأصدقاء».

«إن الرئيس السادات يعد من أعظم رجال السياسة فى القرن العشرين، إنه يمثل الخلق الإسلامى الصحيح».

«لقد كان دائماً صادقاً، ومخلصاً، كما كان شجاعاً، ومتمسكاً بمبادئه».

«إنه من أقدر رجال السياسة فى هذا القرن».

«ولم يعرف العالم هذا إلا أخيراً».

شهامــة

وأياً كان رأى الشاه فى السادات ورأى السـادات فى الشاه، فإننا نخلص من الآراء إلى الأفعال إلى موقف السادات من الشاه.

لقد حضـر الشاه إلى مـصر فى أيامه الأخيـرة مرتين، وفى كلتا المرتين استقبل استقبالاً حافلاً.

الأولى بعد مغادرته إيران بعد ثورة آيات الله مـباشـرة فى يناير ١٩٧٩، واسـتـقـبله السـادات فى أسـوان، وأعلن أن الشـاه جـاء مـصـر بدعـوة من السادات.

وكان ذلك ريثما يأخذ طـريقه إلى مكان آخر، كمـا كان مقرراً، وفعـلاً غادر مصر بعدها بقليل إلى المغرب.

ونستطيع أن نقـول: إن هـذه الزيارة كـانـت جـزءاً من خطة مـرسـومـة، ونستطيع أن نقـول: إنهـا جـاءت لحفظ مـاء وجـه الملك الهارب من مـواجهة شعبه ونستطيع، ونستطيع.

ثم فى آخر الأمر نتساءل:

وهل كان السادات مجبرًا على اتخاذ هذا الموقف؟.

والإجابة الطبـيعـية الأقـرب للصـواب أنه لم يكن هنـاك مـا يجـبـره على ذلك أو على الأقل هذا هو الظاهـر.

إذن هـى الشهامة المصرية..

تصرف السادات كرجل مصرى شهم..

تجاه رجل فى محنة وهذا هو المصرى..

دون النظر إلى مراتب، ولامناصب.

شجاعـة

أما فى الزيارة الثانية فالموقف مختلف تماما.

الشاه صار «شاهاً سابقاً» ولم يعد وراءه أى مكسب سياسى لا من ناحيته هو شخصياً بشكل مباشر، ولا بالتبعية من صديق أو حليف، بشكل غير مباشر.

بل والأخطر من ذلك صار مجرد وجود الشاه فى دولة ما، أو مع شخص ما يعنى المشاكل المباشرة.

ولعل التسمية التى أطلقتها المخابرات الأميركية على هذه المسألة توضح مدى الخطورة فيها. لقد أطلقوا عليها «عملية انتقال الخازوق».

ومن هنا أوصدت الدول حدودها فى وجه الشاه وتلك التى سمحت له بالإقامة فيها عادت بعد قليل للتراجع عن موقفها، وأعلمت الشاه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بذلك.

وعلى ذلك فمجرد دعوة السادات للشاه للحضور إلى مصر هو موقف شجاع، لايقفه إلا رجل شجاع فعلاً تحت أى مسمى وجهت هذه الدعوة.

السادات الرائع

وفى يوم ٢٥ مارس كتبت صحيفة «التيمز» اللندنية تحت هذا العنوان: «السادات الرائع».. تقول فى افتتاحيتها تعليقاً على موقف الرئيس السادات هذا:

«لايسع المرء سوى أن يبدى إعجابه بالسادات، أيا كان رأيه فى الشاه، فمنذ عامين مضيا، لم يكن هناك حاكم واحد فى العالم لايتوق إلا إلى علاقات طيبة مع فخامة الإمبراطور إريامهر الشاهنشاه، حينما كان لديه بترول وغاز يبيعه. وعقود، وكانت أخطاؤه سواء حقيقية أم مزعومة لاتهم

آنذاك سوى منظمة العفو الدولية فقط ولاتهم حكومات لديها أعمال يتعين عليها القيام بها ومصالح قومية ينبغى عليها حمايتها والآن بعد أن أصبح البترول والغاز فى أيدى أعدائه اكتشف الجميع انه ديكتاتور لا يرغبون فى الإرتباط به إلى حد عدم السماح له بدخول بلادهم حتى لعلاجه الطبى».

«إن الغرب يجب أن يخجل من نفسه إزاء موقفه من الشاه».

«إن السادات ما كان يقدم على مثل هذا العمل الكبير الخطير لولا ثقته المطلقة بأن شعبه يؤيد تلك الخطوة الخطرة إلى أبعد حدود التأييد».

كلمة القدر

ثم بعد أن كان كلمة الله، بانتهاء هذا الفصل المأساة..

قال السادات:

«كان لزاماً علينا. نحن الشعب الأصيل أن نقف معه، وهو يواجه محنته، بعد أن واجهت القيم الإنسانية التى أوصت بها كل أديان السماء.. امتحاناً عسيراً أمام ماديات الحياة».

«أهلى وشعبى فى مصر».

«أنا فخور بكم، فخور أننى كبير العائلة المصرية، التى وقفت أمام العالم كله لتقول أن هناك قيما، وهناك عيبا وهناك حدود لكل ما يمكن أن يقوم به البشر».

«ولو لم يتحقق فى فترة حكمى إلا موقفكم معى من شاه إيران، لاعتبرت هذا أروع إنجاز يمكن أن ينتهى به حكمى».

■ ■ ■

الرحيل إلى المجهول



■ ■ وهنا أحس الشاه أنه طريد. رجل فى العالم لايجد مأوى، بل وكان التهديد لأى بلد يفتح حدوده للشاه بعد أن أهدرت المحاكم دمه هو وأسرته، ولكن ماذا كان موقف الملوك والرؤساء حيال ذلك؟.

الرحيل إلى المجهول

وصل شاه إيران إلى أسوان يوم ١٦ يناير ١٩٧٩ بعد مغادرته طهران مباشرة.

وكان الرئيس كارتر فى اليوم التالى ١٧ يناير يعلن فى واشنطن أن شاه إيران فى مصر، وسوف يكون هنا قريبا.

موكب الضيافة

فى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم الأربعاء ١٦ يناير ١٩٧٩ وفى مدينة أسوان المصرية الهادئة، كان التاريخ يسجل حدثاً مهماً، يشهد بالفخار للمصريين، ولأنور السادات كمصرى تمثلت فيه شهامة المصريين.

ففى هذه الساعة كان مطار أسوان يستقبل موكبًا مهيبًا حزينا يستقبله بالترحاب ضيفًا على مصر بدعوة من الرئيس «الراحل» محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية.. نفس الموكب الذى غادر طهران منذ ساعات مشبعا باللعنات.

كان الموكب يتألف من طائرتين خاصتين، إحداهما بوينج ٧٤٧ يقودها الشاه بنفسه، على متنهما الشاه والشهبانو وعدد آخر من أفراد الأسرة الحاكمة الإيرانية والمسؤولين السابقين والحاشية بلغ ٣٠ فردًا.

وهبط الشاه والشهبانو سلم الطائرة، بينما كانت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف الإيرانى.

وكان فى استقباله الرئيس (الراحل) أنور السادات، الذى استقبله معانقًا، وصافح الشهبانو.

ثم صافح الشاه كبار مستقبليه من المصريين (نائب الرئيس آنذاك) حسنى مبارك، والمهندس سيد مرعى مساعد رئيس الجمهورية، والمهندس عثمان أحمد عثمان المشرف العام على مشروعات الأمن الغذائى.. حسن

كامل رئيس ديوان رئيس الجمهورية، ثم صافح الوزراء وكبار المسؤولين.. وأعضاء السفارة الإيرانية فى مصر.

وبعد ذلك استعرض الرئيس السادات والشاه حرس الشرف، وخلفهما قرينتاهما.. وعزفت الموسيقى السلامين الوطنيين الإيرانى والمصرى.

وقدم طفلان إيرانيان باقتين من الزهور للسادات والشاه، وقدمت طفلتان باقتين أخريين لجيهان والشهبانو.

سيارة مكشوفة

بعد انتهاء مراسم الاستقبال، استقل الرئيس السادات والشاه سيارة مكشوفة من المطار حتى شاطئ النيل، حيث استقلا «المعدية» إلى الضفة الغربية للنيل، حيث الفندق الذى يقع على جزيرة قبلة.

وكان الضيف طوال الطريق الممتد من المطار إلى الشاطئ موضع ترحيب المواطنين الذى اصطفوا على جانبى الطريق، كما أطلقت المراكب فى النيل صفاراتها.

وأمام الفندق اصطف حرس شرف لتحية الشاه..

وعلى الفندق رُفع العلمان المصرى والإيرانى.

حفل عشاء

وفى المساء أقام الرئيس أنور السادات حفل عشاء فاخر طبعًا تكريمًا للشاه والشهبانو فى فندق اوبروى.

حضره بالطبع كبار المسؤولين للترحيب بضيف مصر.

وتقاطر سفراء الدول على الشاه، طبعا بتوجيه من حكوماتهم، يلحون عليه أن ينزل ضيفًا على بلادهم، فحسابات الأحداث حتى ذلك الوقت

كانت تقول: إنها محنة مما سبق وتعداها الشاه، وإنه لاشك بعد قليل عائد إلى بلاده وعرشه.

وبالطبع لن ينسى أن يرد الجميل لمن وقفوا معه فى محنته.

ثم إن الشاه..........

أغنى رجل فى العالم

يتحدثون كثيرًا عن ثروة الشاه، فيقال: إنه أثناء حكمه وبعده يعتبر أغنى رجل فى العالم..

وتطالب الثورة الإيرانية بأمواله وتقول: إنها ٥٠٠ بليون دولار، بينما تهبط تقديرات أخرى بهذه الثروة إلى ١٥ بليونًا فقط.

وليس هذا بكثير على ملك دخله السنوى لايقل عن ٢٠ مليون دولار.

اســـتثمارات

وهناك للشاه استثمارات كثيرة، تحت أسماء كثيرة من هؤلاء الذين يثق فيهم أمثال وليام روجرز الذى كان وزيرًا للخارجية الأميركية وريتشارد هيلر مدير المخابرات الأميركية سابقًا.. وغيرهما الكثيرون.

ولم يعد الشاه فى سبيل ذلك من «يسرقه» حقيقة، فيقولون أن أحد أمراء أسرة «قاجار» التى سبقت عائلة بهلوى فى حكم إيران، كان يعمل فى استثمارات باسمه لحساب الشاه، وادعى فقد ٧٠ دولار.. واضطر الشاه «المغيظ» أن يسكت.

وهناك أحد الرجال الإيرانيين المقرب للشاه يختفى بعد خلعه بحوالى ١٥٠ مليون دولار كانت تحت يده لحساب الشاه.

أسهم وسندات

ويتحدثون عن البلايين الكثيرة فى شكل أسهم وسندات فى ١٧ بنكًا وشركة تأمين، ٢٥ شركة حديد وصلب، ١٨ شركة معادن، ١٠شركات لمواد البناء وغيرها الكثير.

وعقارات وأراض

وللشاه قصور، و«عمارات» سكين فى أماكن مهمة كثيرة، فى سان موتيزا بسويسرا قصر فخم فى كاليفورنيا ألفى فدان فى كلورادو.. قصر فى كل من بيفرلى هيلز وبلير فى أميركا، وقصر فى الريفيرا الفرنسية وآخر فى أكابولكو فى المكسيك، وقصر فى بريطانيا وغابة فى مقاطعة سورى وبناية سكنية تتألف من ٣٦ طابقًا فى نيويورك، وأيضا غيرها وغيرها.

إلى المغرب

وأبلغ السفير المغربى فى مصر إلى الشاه إلحاح الملك الحسن الثانى ملك المغرب، أن يكون الشاه ضيف بلاده.

وبعد أربعة أيام فى أسوان..

غادر الشاه وصحبه إلى المغرب التى استقبلته بترحاب وسرور.

وكان قرار الشاه أن الإقامة فى المغرب ستكون لفترة غير محدودة..

ولكنها ليست إقامة دائمة.

وفعلاً أمضى الشاه أيامًا سعيدة فى ضيافة عربية وكرم من الملك الحسن الثانى.

ولكن الأمور تغيرت..

كان الخومينى قد صرح فى باريس يوم ١٢ يناير ١٩٧٩ قبل مغادرته إلى إيران أن دوائر الثورة الإسلامية ترحب برحيل الشاه عن إيران، وأن تستضيفه أية دولة ترغب فى ذلك مع اطمئنان هذه الدولة إلى أن مصالحها لن تتعرض للخطر من جراء ذلك.

ولكن بعد أن غادر الشاه إيران يوم ١٦ يناير وبعد أن وصل الخومينى إليها فى أول فبراير تغيرت اللهجة.

وتطورت المسائل بعد ذلك إلى أن أصبح الشاه مطلوبًا وموضع محاكمة ومطاردًا أينما كان.

والأهم من ذلك كان التهديد لأى بلد يفتح حدوده للشاه خاصة بعد أن أهدرت المحاكم الثورية دم الشاه وأسرته وحاشيته، بل وكل من تعاون معه وتبعا لذلك تبدل الموقف فى المغرب.

وتم إبلاغ الشاه.. أنه من الأفضل له أن يغادر البلاد فى خلال أربع وعشرين ساعة؛ وذلك لأن وجوده فى المغرب أدى إلى متاعب سياسية للملك الحسن الثانى وكان ذلك فى آخر إبريل ١٩٧٩.

وصار لزاما على الشاه أن يرحل.. ولكن إلى أين؟.

الملك الطريد

وهنا أحس الشاه أنه طريد.. أغنى رجل فى العالم.. لايجد مأوى.. كان من المؤلم حقًا أن توصد بعض الدول حدودها فى وجهه، لقد رفضت الحكومة السويسرية إقامته فى أراضيها، كما كان الشاه نفسه يخشى على حياته؛ لأن الأمن فى سويسرا شديد التراخى، ورفضت النمسا ومستشارها كرايسكى أن يلجأ الشاه إليها.

الأكثر إيلامًا

ولكن الأكثر إيلامًا كان رفض الحكومة الأميركية وكارتر بالذات أن يكون الشاه فى أراضيها، رغم أنه حليفها الأكبر ورغم تأييدها المطلق لكل ما كان يتخذه الشاه من سياسيات ومواقف تأييدًا يرقى إلى المشاركة فى صنع القرار.

ولم تجد الحكومة الأميركية ولا الرئيس الأميركى حرجًا فى إعلان رفضه استقبال الشاه، والصحافة الأميركية تعلن الرأى الرسمى أن

«الشاه غير مرغوب فيه فى الولايات المتحدة الأميركية».

المضحك المبكى

وفى هذا الموقف شديد الصعوبة بدت بعض المسائل وكأنها «فكاهة».

ذلك أن تأتى عروض لإقامة الشاه من مثل إمارة موناكو، والأغرب أن يأتى «عرض للاستضافة» من ألد الأعداء.. الاتحاد السوفيتى، ومن رئيسه فى ذلك الوقت بريجنيف.

وصار الأمر فعلاً مبكيًا مضحكًا.

تعاطف فقط

وتصبح الصورة أكثر هزلية، عندما يعلن الكثير من الملوك والرؤساء تضامنهم مع الشاه المطرود.. المطارد الهائم على وجهه يبحث عن مأوى.. يعلنون فقط تضامنهم، وتعاطفهم، وحزنهم العميق.

ملك اسبانيا يتصل مرارًا للمواساة والاطمئنان والاعتذار عن عدم استضافة الشاه لأسباب أمنية.

والأسرة المالكة البريطانية كانت سباقة لإعلان أسفها، وتعاطفها

الشديد؛ لكن أمر الاستضافة تقرره الحكومة فالأسرة المالكة تملك ولا تحكم، وهناك مسز تاتشر امرأة بريطانيا الحديدية تعد إنها فى حالة وصولها للحكم، فإنها ستكون أول المرحبين بالأسرة الشاهنشاهية، ولكنها تتنصل من وعدها بمجرد وصولها للحكم.

والرئيس الفرنسى فاليرى چيسكار ديستان الذى يقول عنه الشاه: «كان يلعق حذائى» الآن يتهرب.

إلى جزر البهاما

وكان قرار الشاه المفاجئ إلى جزر البهاما.

وتم تدبير كل شىء وتم الانتقال إلى هناك فى هدوء.

وفى الأسابيع القليلة التى عاشها الشاه فى جزر البهاما، كما يقول فى مذكراته «أنفق الكثير».

وتحولت الجزيرة الصغيرة إلى قلعة عسكرية، والڤيلا التى يقيم فيها الشاه «ثكنة» حقيقية، يحرسها ٨٠ رجلاً من الرجال المسلحين الأشداء يتناوبون حراستها على مدى ٢٤ ساعة كاملة.

وتقرر أيضا تخصيص دوريات مسلحة تجوب المناطق المحيطة بالڤيلا، وتخصيص مجموعة من الحرس لمراقبة السماء، حيث كان الشاه يخشى من غارة جوية.

الرعب

وكان تشديد الحراسة أمرًا لابد منه، وذلك أن اتجاهًا محمومًا من رجال الثورة الجدد تجاه الشاه وأسرته قد سيطر على الموقف، فأصبح على الشاه وأسرته التشرد والرعب وهى أمور يعانون منها كأسرة ملكية مرفهة.. عاشت طويلا آمنة، وهى تفرض التشرد والرعب على شعب قوامه ٣٥

مليون نسمة.

كانت المحاكم الثورية برئاسة آية الله خلقلى، قد أباحت دم الشاه وأسرته وحاشيته، وهى أحكام مشمولة بالنفاذ. والثوار لايألون جهدا فى تنفيذها، وبكامل العنف، والدليل هو سقوط ٣٥٠ راسًا لمسؤولين كبار من عهد الشاه.

بعثات للموت

وبالرغم من بعد الشاه مسافة هو وأسرته فقد تدبرت الثورة أمرها فيهم لتنالهم على بعدهم.

فقد أشيع أن آية الله الخومينى قد اتفق مع منظمة التحرير الفلسطينية على القيام بتنفيذ أحكام المحاكم الثورية فى حق الشاه وأسرته فى خارج إيران، وأيضا من هرب معه من حاشيته.

وفعلاً جرت محاولتان لاختطاف الأمير رضا ولى العهد، والذى كان يدرس فى أميركا.

فى أولاهما اقتحم إيرانى منزل الأمير رضا فى تكساسى، ولكنه لحسن الحظ كان قد غادره قبلها بقليل.

أما المرة الثانية فكانت شبه موقعة حربية، فقد قام ما بين ٤٠،٣٠ إيرانيًا باقتحام الفيلا التى يقيم فيها الأمير، ونهبوا محتوياتها لتسليمها إلى السلطات الإيرانية بدعوى أنها ممتلكات الشعب الإيرانى، ويجب أن تعود إليه هى والفيلا، وفى التحقيق ذكروا أكثر من ذلك.

إن لديهم أوامر بإعادة الأمير رضا إلى إيران.

وعند ذلك تقرر استدعاء الأمير رضا لينضم إلى الأسرة فى مكان واحد خوفًا من أن يختطفه عملاء الخومينى ليكون رهينة فى يده يساوم بها على حياة الشاه نفسه.

وطــرد

ويبدو أن حكومة جزر البهاما أصابتها عدوى عدم الارتياح وقبل موعد تجديد تأشيرات الشاه ورفاقه بعشرة أيام فقط، وأخطر انه لا تجديد للتأشيرات.

المكسيــك

وفى هذه المرة تدخل هنرى كيسنجر شخصيًا لدى «لوبيز بورتيللو»..

رئيس المكسيك، كما اتصل به آخرون، بعضهم من إدارة كارتر.. لتدبير مأوى للشاه هناك.

وقبل يومين من انتهاء تأشيراتهم فى جزر البهاما، كان الشاه وصحبته مدعوين لزيارة المكسيك.

وفى العاشر من يونيه ١٩٧٩ كانوا هناك.

واشتد المرض

وفى المكسيك اشتد المرض الذى يأكل فى جسد الشاه، وكانت أميركا فى رأى الشاه هى أفضل الخيارات العلاجية.

ومن جديد يرفض الرئيس الأمريكى كارتر حضور الشاه إلى أميركا ولا حتى للعلاج.

وأخيرًا وبعد ضغوط شخصية كثيرة وافق كارتر.

وافق على أن تقوم بعثة طبية بالكشف على الشاه للتأكد من ضرورة حضوره للعلاج.

وأخيراً نيويورك

. ومن الناحية الطبية البحتة لم يكن اثنان يختلفان على ضرورة هذا

العلاج وفوريته.

وطبعًا قرر الفريق الطبى برئاسة الدكتور بنيامين كين ضرورة سفر الشاه إلى نيويورك للعلاج.

وفى يوم ٢٢ اكتوبر كان الشاه فى المستشفى ليجرى العملية بعد يومين.

وطوال هذه الفترة أهمله الرئيس كارتر تمامًا فلم يتصل به لا هو.. ولا أى مسؤول أميركى منذ وصوله نيويورك، حتى غادرها.. ولا حتى هاتفيًا.

يوم القيامة ٤ نوفمبر

وكان وقع هذا الإهمال الرسمى شديدًا على الشاه، من حلفائه ومؤيدى الأمس، إلا أن الأمور سارت على أى حال، على مدى إسبوعين وحتى يوم ٤ نوفمبر حين قامت القيامة فى أميركا.

ففى هذا اليوم احتل الطلبة الثائرون فى طهران مبنى السفارة الأميركية هناك واحتجزوا من بداخله من رهائن.

وأبدى الشاه استعداده للسفر، لأن ذلك فى رأيه يساعد على حل أزمة الرهائن، وأعلن ذلك صراحة فى ٨ نوفمبر.

ولم يكن لبيانه هذا أى صدى لدى الإدارة الأميركية ولا أى رد.

كـــرم مصرى

وفى هذا يقول الشاه فى مذكراته:

«وجاء أول رد فعلى على بيانى، ليس من واشنطن، ولكن من القاهرة».

«وقد تأثرت بالطبع».

«ولكننى كنت غير مستعد فى ذلك الوقت، لأن أتطفل ثانية على فضل

صديقى وكرمه».

«كان المنزل فى كويرنافاكا كافيا لاحتياجاتنا على نحو تام».

وعمومًا لقد حسم الأطباء الموقف.. بإصرارهم على أن السفر بالنسبة لى هو «موت محقق».

المكسيك.. لا عودة

تسير أمور العلاج كما أوضحنا بالتفصيل فى الجزء الخاص بالعلاج من هذا الكتاب.

وسارت الأمور أيضًا على الجانب السياسى للموضوع حتى نهاية نوفمبر، حيث يقول الشاه فى مذكراته:

«بحلول نهاية نوفمبر ١٩٧٩ أرادت الولايات المتحدة أن أغادر أراضيها بأى ثمن وكنت متلهفًا بالمثل على الرحيل».

«كنت أريد العودة إلى المكسيك.. بأسرع ما يمكن».

وكانت المكسيك فى ذلك الوقت تعلن دائمًا، وتذكر للولايات المتحدة إنه لا مشكلة فى عودة الشاه إلى هناك.

ولكن فى أوائل ديسمبر يعلن وزير الخارجية المكسيكى فى العاصمة مكسيكوسيتى أن عودة الشاه هى «ضد المصالح الحيوية للمكسيك».

إلى لاكلاند

وكحل وسط تحت إلحاح ضرورة مغادرة الشاه لنيويورك اتفق على أن يقضى باقى فترة النقاهة فى «لاكلاند» بتكساس.

وفى ٢ديسمبر كان الشاه فى طريقة إلى هناك فى عملية يصفها الشاه فى مذكراته بأنها «أشبه بمشهد من مشاهد الهروب فى فيلم لقطاع

الطرق، من أفلام الثلاثينيات».

ففى موعد الرحيل انتشر خمسون رجلاً من رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية. مدججين بالسلاح فى ردهات المستشفى وعلى النوافذ وجميع منافذ المستشفى.

وأيضًا امتلأت الشوارع المحيطة بالمستشفى بمثل هؤلاء الرجال.

فى قسم الأمراض العقلية

وعندما وصل ركب الشاه إلى القاعدة، «وضعوها» فى سيارة للمرضى وهناك كان لا بد من وضع الشاه فى مكان آمن، ووجدوا بغيتهم فى قسم هادئ فى نهاية المستشفى، وهو قسم العلاج النفسى، أى قسم الأمراض العقلية.

كانت الحجرات مغلقة دائمًا، أبوابها ونوافذها، وستائرها بما يوحى أن الجميع معتقل.

ومن هناك انتقل الشاه إلى بنما.

ومنها إلى القاهرة فى أيام المرض.

■ ■ ■

الأيام الصعبة



■ ■ بدأت أشعر أن ثمة لعبة غامضة مزدوجة تدور حولى، وبدأ أعوانى يشكون .. وأصبحنا نحس أن البنادق والرشاشات موجهة إلى صدورنا وليس لحمايتنا، وبدأ شعورى يزداد بأن جهودًا تبذل لعزلى عن العالم. ولكن أين المفر؟.

أيام فى بنما

بدأت إقامة الشاه فى بنما يوم ١٥ يسمبر عام ١٩٧٩، حيث نزل فى جزيرة «كونتادورا» بالقرب من العاصمة البنامية بنماسيتى.

وكان ذلك باتفاق خاص مع الرئيس الأميركى جيمى كارتر، الذى أرسل مبعوثًا خاصًا عنه لعقد اتفاق بهذا الشأن مع المسؤولين فى بنما.

مشاكل متداخلة

وكانت قد أُثيرت فى الأيام الأخيرة لوجود الشاه فى ما مشكلة سياسية سببتها الحكومة الثورية فى إيران، وتداخلت معها وزامنتها فى نفس الوقت مشكلة طبية تتعلق بحياة الشاه.

وكان حل المشكلتين معًا فى القاهرة.

جراحــة

وفى أوائل يناير ١٩٨٠ أصبحت الحاجة لإجراء العملية قائمة، بل وفورية، ودخل الشاه مستشفى «ماتيلا» الخاص فى بنما لإجراء العملية التى أصبحت عاجلة، وكان لابد من الاستعانة بالأطباء الأميركيين الذين أصبحوا على علم تام بالتاريخ المرضى للشاه.

صـدام

وهنا يحدث الصدام.

تمسك البناميون ألا يسمحوا لأى طبيب أجنبى، حتى ولوكان «مايكل دبيكى» نفسه وهو أشهر جراح على مستوى العالم فى ذلك الوقت أميركى الجنسية أن يشاركهم.

وعلى الطرف الآخر..

أعلن الأطباء الأميركيون أن أحدًا غيرهم لايستطيع إنقاذ الشاه، وإن - وهذا هو الأهم - إمكانيات بنما كلها لاتسمح بإجراء جراحة خطيرة كهذه.

وأعلن فى ذلك الوقت أن الشاه غادر المستشفى؛ لأن العملية أُجلت نتيجة لعدم وجود تجهيزات كافية.

وبينما تجرى هذه المعركة الطبية كانت تجرى معركة سياسية حادة.

وسياسة

فالحكومة الثورية فى إيران ومنذ أن وطأت أقدام الشاه أرض بنما لم تكف عن المطالبة بتسليمه إليها لمحاكمته.

وجرت اتصالات ومشاورات كان آخرها التلويح بإمكانية حل مشكلة الرهائن مقابل تسليم الشاه، هذا المطلب القديم للخومينيين فى طهران.

وللشاه.. رأى

ولعله من المفيد هنا أن نلتقط بعض السطور من مذكرات الشاه.. والتى تتناول تلك الحقبة:

«بدأ النظام الحاكم الجديد فى إيران بشن حرب علىّ، وطالب الحكام الجدد الحكومة البنامية بإلقاء القبض علىّ».

«ولم تفاجئنى تحركات القادة الجدد فى طهران بقدر ما فاجأنى تردد هؤلاء الذين «يضيفوننى»، فبدلاً من الرد على طلب اعتقالى بالاحتقار الذى يجب أن يواجه به، بدأ هؤلاء فى الحكومة البنامية يسهمون من جانبهم فى بث الشائعات، بأنهم كانوا فى الحقيقة على اتصال بطهران وأنهم يتفاوضون حول «ترتيبات» أفضل من تلك التى تراها الأمم المتحدة».

تآمـر

«وبدأت أشعر بأن ثمة لعبة مزدوجة تدور حولى»

«فالحكومة البنامية تؤكد لى سرًا بأن مسألة تسليمى لن تحصل.

وانها تتنافى مع القانون البنامى، وفى نفس الوقت أسمع عن اتصالات ومفاوضات تجرى مع طهران».

والمرض القاتل والصدام

«وكان الموت يتسلل إلىّ من مرضى، فقد عاودتنى هجمة السرطان فى فبراير وانتشرت حتى وصلت إلى الطحال، مما استدعى إجراء عملية جراحية لى أوصى أن يقوم بها الطبيب المعروف.. ميشال دبيكى».

«وحدث الصدام بين الأطباء».

القرار.. مصر

وفى ذلك الوقت اتخذ الشاه القرار وهو اللجوء إلى مصر.

وحاول مسؤول أميركى كبير أن يثنى الشاه من عزمه، وعن ذلك يقول الشاه فى مذكراته:

«قال لى: إن زيارتى لمصر سوف تجعل موقع السادات فى خطر، وقد تعرض كل عملية السلام فى الشرق الاوسط للمخاطر، وكان أفضل حل فى رأى الرئيس كارتر هو أن أبقى فى بنما مع كل التسهيلات المطلوبة».

«ولكن قرارى بالسفر إلى مصر كان حاسمًا، فالوعود الأميركية لايمكن الوثوق بها».

«فقد كلفتنى عرشى، وقد تكلفنى حياتى».

الشاه فى القاهرة

وكان الخبر الذى طيرته أجهزة الإعلام ظهر ٢٤ مارس ١٩٨٠ من القاهرة كان مفاجأة شبه عامة للجميع.. عدا أفراد قلائل على مستوى العالم كله.

الخبر يقول:

«وصل شاه إيران السابق محمد رضا بهلوى إلى القاهرة الساعة الثانية عشرة إلا الربع من ظهر اليوم قادمًا من بنما».

وفى القاهرة.. كان يجرى استقبال الشاه.

الموكب الحزين

وصلت الطائرة الأميركية التى أقلت الشاه من بنما إلى القاهرة، وكان فى انتظارها هناك.. الرئيس (الراحل) أنور السادات وقرينته جيهان السادات ونائب رئيس الجمهورية (آنذاك) حسنى مبارك.

وكان الشاه أول من هبط سلم الطائرة، حيث أسرع إليه الرئيس السادات معانقًا.

وقد بدا الشاه نحيفًا هزيلاً تعلو وجهه الصفرة والشحوب، وكان الإرهاق الشديد واضحًا عليه.

وسار الركب الحزين، الذى أطبق عليه الجوم.. الشاه وأسرته والقلة التى استقبلته إلى الطائرة المروحية «الهليكوبتر» المنتظرة عن قرب، لتحملهم مباشرة إلى المستشفى العسكرى بالمعادى، حيث كانت الترتيبات قد تمت لاستقبال الشاه وعلاجه.

وفى المعادى كان استقبال هو الآخر.. أشد حزنًا ووجومًا يرأسه الفريق بدوى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة.. واللواء طبيب صبرى اسماعيل مدير المستشفى.

وأمورنا الداخلية

وإذا ما تركنا ردود الفعل الخارجية واتجهنا إلى الساحة الداخلية فى مصر نجد أنه كان هناك تعاطف عام شعبى، فى جانب الشاه، فالشعب المصرى شهم.. عطوف.. تتغلب فيه المشاعر الإنسانية على كل الأمور، هذا فى العموم.

معارضة

أما فى المسائل التنظيمية، خاصة تلك التى تهتم بمسائل «الإسلام السياسى» فقد عارضت وبشدة مجرد حضور الشاه إلى مصر، حتى للعلاج، الذى فى رأيها لا يمنع من المؤاخذة والعقاب، أما وقد جاء فعلاً.. فلا بد من تسليمه لحكومة الثورية فى إيران لتقتص منه.

صوت إسلامى حقيقى يعبر عن روح الإسلام الصحيحة، جاء فى رأى فضيلة الشيخ حسنين مخلوف الذى كان مفتيًا للديار المصرية فى وقت سابق، يتلخص فى أن كل حكومة أو نظام يقوم على أنقاض نظام سابق لابد وأن يوجه له اتهامات كثيرة، ولابد من التأكيد من هذه الاتهامات التى توجه للشاه، حتى لانسلم رجلاً قد يكون بريئًا، فنتحمل وزر مصيره.

وموافقة شرعية

على أن السادات كان قد حصل على موافقة من مجلس الشعب فى وقت سابق - يوليو ١٩٧٩ - على إقامة الشاه فى مصر فلا بأس من تأكيد هذه الموافقة، وتجديدها وحصل الرئيس السادات على موافقة مجلس الشعب فى ٢٦ مارس.. موافقة جماعية.. عدا ثمانية أصوات على إقامة الشاه فى مصر.

والأطبـــاء

على أن الفريق الطبى المعالج للشاه لم يكن يعنيهمما يدور على كل هذه الساحات.. خارجية.. وداخلية.. أى شىء، لقد تسلم الحالة وشرع فى العلاج.

وبدأ العمل تحت كل هذه الضغوط السياسية والنفسية، وقبل كل هذا وبعده الحالة المتأخرة، بل الخطيرة للمريض.. الشاه.

وتمت كل الترتيبات والاستعدادات بسرعة فائقة.

العمليـــة

وأُجريت عملية استئصال الطحال للشاه فعلاً يوم ٣٠ مارس ١٩٨٠ فى مستشفى المعادى.

قام بالعملية فريق طبى أميركى برئاسة الدكتور ميشيل دبيكى وهو لبنانى الأصل.. أميركى الجنسية.

وأعلن أن العملية تمت بنجاح.

أوسمـــة

وفى اليوم التالى أنعم الرئيس السادات بأوسمة على جميع من اشترك فى إجراء عملية الشاه.. فاز بأعظمها الدكتور دبيكى.

إلى قصر القبه

وغادر الفريق الطبى الأميركى المستشفى، ومصر كلها، عائدًا إلى بلاده محملاً بهدية السادات الثمينة مودعًا بالتقدير.

وفى يوم ٩ من إبريل التالى، كان الشاه قد تماثل للشفاء ويغادر المستشفى هو الآخر إلى قصر القبة.

الصراع المرير



■ ■ لقد كان كل شيء يجري في سرية تامة، وإلا لقد كانت كل العيون مفتوحة.. تترقب وتتابع، ووكالات الأنباء تركز اهتمامها على كل ما يتعلق بالشاه، خاصة في هذه الساعات التي أصبحت بالنسبة له .. مصيرية ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟.

أيام المرض والموت

عندما غادر الشاه مستشفى المعادى، كان قد برئ من عملية استئصال الطحال كما أذيع ساعتها، وكان عليه أن يستمر فى العلاج بالعقاقير الكيماوية للسرطان الذى سرى فى جسده منذ زمن طويل مضى.

وفى ٢٦ من شهر يونيه من العام نفسه (١٩٨٠).. ساءت فجأة حالة الشاه الصحية، وعاد إلى المستشفى بالمعادى مرة أخرى.. بين الحياة والموت فى صراع عنيف، وتمسك بأسباب الحياة حتى يوم ٢٧ يوليو حين أعلنت وفاته.

وبين ٢٦ يونيه و٢٧ يونيه كانت أيام رهيبة.. أيام ترقب.. أيام إرهاق.. ونهاية حزينة.

يكاد المريب

ورغم أن البيان الذى صدر عن مستشفى المعادى عن الوفاة، جاء عاما ولم يتعرض تقريبًا لخلفيات حالة الشاه المرضية، والتى هى السبب الفعلى للوفاة، حيث قال: إنها حدثت نتيجة لمضاعفات السرطان.

وعلى نظام المثل الذى يقول: يكاد المريب يقول خذونى.

سارع الدكتور دبيكى إلى التليفزيون الأميركى فى مساء نفس اليوم وفاة ليعلن أن العلاج باستخدام المواد الكيميائية تسبب فى وفاة شاه إيران السابق.

وقال: «إن العلاج بالمواد الكيميائية الذى كان يهدف إلى إيقاف انتشار السرطان أضعف من مقاومته للالتهاب، وقد فتك به ذلك الالتهاب ولمس السرطان.. فى نهاية الأمر».

وفهم الكثيرون أن دبيكى يشعر بأن وراء الأمور شيئًا ما يتعلق به هو شخصيًا، وأن الشعور الداخلى الدفاعى لديه هو الذى أسرع به إلى ذلك، قبل أن يقول به الآخرون.

واتهـام

وسـارع أحد مـعاونى الدكتـور دبيكى ليـوجه اتهـامًـا مبـاشـرًا للأطبـاء المصريين بالتسبب فى وفاة الشاه.

مـرة أخـرى تسـيـر الأمـور فى اتجـاه أن من يشـعـر بالفـعل الذى أدى للكارثة على يديه يسارع باتهام الآخرين، قبل أن تشير إليه أصابع الاتهام.

قال: «إن الالتهاب انتشر بعد القرار الذى اتخذه الإخصائيون المصريون بمضاعفة جرعة المواد الكيميائية».

ودفـاع

ولما كـان المصـريـون براء من هذا الاتهـام الفظيع، ولديهم الدليل، فلم يكن هناك بد من كشف المستور.

وكان تصريح من طبيب فى مستشفى المعادى موجه للعالم أجمع وفى مواجهة الدكتور دبيكى.. شخصيًا.

قـال الطبيب المصـرى: «إن كل وثائق العـلاج محفوظة فى الملف الخـاص بالشاه، والذى يعلمه دبيكى أن «بروتوكول» العلاج يأتى من أميركا وفرنسا.. وأن الأطبـاء المصـريين كـانوا منفـذين للبـروتوكـول، وعند إبداء الرأى عند اللزوم فإنهم يتصلون بأميركا وفرنسا».

«وعلى هذا فإن الدكتور كولمان الأميـركى والدكتـور فـلاندرين الفـرنسى هما اللذان وضعـا بروتوكول العـلاج، قبل مغـادرتهمـا القـاهرة بعد جـراحة استئصال الطحال».

وكان فى هذا الرد كفـاية فى انتفـاء تهـمة العـلاج الكيميـائى الخـاطئ للشاه.

وتقصير من دبيكى

أما فيما يتعلق بباقى تطورات الحالة فيرد الطبيب المصرى:

«إن الدكتور دبيكى يعلم أن القاهرة أرسلت له صورة الأشعة والتحاليل إلى أميركا، وأمام راى القاهرة فى الأشعات بأن هناك «خراجًا» تحت الحجاب الحاجز، أدى إلى رفع الحجاب فى صورة الاشعة».

أى أن رأى الأطباء المصريين كما يتضح من البيان كان ضرورة التدخل الجراحى فى هذه الحالة وكان ذلك فى ٢٧ ابريل.

ولخطورة الحالة قام دبيكى فعلاً برحلة سرية للقاهرة استغرقت ٤٨ ساعة فى مهمة طارئة للاطلاع على الحالة عن قرب، وفى النهاية أبدى نصيحة أو لنقل بمعنى أدق توجيهًا علاجيًا خاطئًا.

«علاج بالمضادات الحيويوة يكفى.. وسوف يشفى نهائيا..»

ويوضح البيان المصرى:

«وكان القرار بالضرورة (أى حتمًا من وجهة النظر الطبية) ينبغى أن يكون بالتدخل الجراحى».

وهو ما اضطر الأمر إليه بعد ذلك، كما يوضح البيان، ولكن بعد فترة طويلة.

«وتأجيل الجراحة من يوم ٢٧ إبريل حتى ٣٠ يونيه كان كافيًا لأن يتعاظم حجم البؤرة الصديدية، وتعفنت البكتريا، مما أدى إلى تضخمها وأصبحت خراجا ووصلت الحالة إلى ما وصلت إليه».

«واضطر الجراح الفرنسى الدكتور فانييه إلى إصلاح ما أردت (يقصد دبيكى) تفاديه».

اتهام مباشر

ثم يخلص البيان إلى توجيه اتهام مباشر لدبيكى.

«أنت تعلم أن ذيل «البنكرياس» قطعه المشرط أثناء استئصال الطحال، وقد شهق أحد الجراحين المصريين داخل حجرة العمليات، وكان يساعدك، وفى الحال تم رتق البنكرياس بغرزة واحدة مستمرة، وهو تعبير يعلمه الجراحون وحدهم».

ويضيف البيان:

«كل من تابع حالة الشاه اعترف بأن «الخراج الشهير».. هو أحد مضاعفات الدكتور دبيكى لاستئصال الطحال؛ لأنه قطع البنكرياس، ولأنه لم يضع درنقة (خرطوم مدرع) مكان الجرح حتى يتجمع أى صديد من الجرح».

ومهمة هذه «الدرنقة» هى إخراج أى تجمعات صديدية أو دموية نتيجة الجرح إلى خارج البطن.

والحقيقة أن هذه الجزئية بالذات من البيان أثارت تساؤلات، بل واتهامات لم تنته حتى كتابة هذه السطور.

إهمال.. أم تعمد؟

قال الكثيرون يدعمهم فى هذا الرأى الطبى: إن خطأ الدكتور دبيكى لايمكن أن يأتى مصادفة من جراح عالمى مثله، وإذا كان هناك من خطأ فكان يمكن تدارك نتائجه بوضع تلك الأنبوبة المطاطية، وهو إجراء طبى عادى جدا يعقب أى عملية.

ويخلصون من ذلك أن دبيكى أحدث القطع متعمدًا، ومرة أخرى رفض تدارك نتائجه، وأن المسألة بذلك تصل إلى حد القتل العمد.

بل ظهرت عناوين فى بعض الصحف تقول: «إن المخابرات الأميركية أرسلت جراحًا لقتل الشاه فى مصر».

إصلاح بعد الأوان

وأرسلت الشهبانو إلى الدكتور فلاندرين لإدراك الحالة التى أصبحت شديدة الخطورة.

وانتقى هو معه.. جراحًا فرنسيًا آخر.. من النوع المشهور بمعالجة أخطاء الآخرين.

وفى ٣٠ يونيه أُجريت العملية التى كان فى رأى المصريين أن تجرى يوم ٢٧ إبريل ورفض دبيكى.

وقام الفريق الطبى الفرنسى «بشفط» لتر ونصف اللتر من الصديد.. الذى تكون بسبب قطع البنكرياس.

وخرج الدكتور فلاندرين من غرفة العمليات غاضبًا بعد أن تأكد له أن المعاناة والضعف اللذين أصابا الشاه كانا بسبب فعلة دبيكى.

استعدادات أخرى

وأيضًا وقبل أن نعود إلى متابعة حالة الشاه نذكر أن هناك استعدادات أخرى كانت تجرى فى مكان آخر.

فعندما تدهورت الحالة الصحية للشاه، وأوضحت مجريات الأمور أن التدخل الطبى الصحيح قد تأخر وقته، وأن الأمل أصبح ضعيفًا فى إنقاذ حياة الشاه، بدأت على الفور الاستعدادات فى جامع الرفاعى بالقلعة بالقاهرة لإقامة مدفن للشاه.

وفى سرعة متناهية كان المكان الذى سبق وأن دفن فيه شاه إيران السابق رضا بهلوى فى طريق نقل جثته من جنوب إفريقيا، حيث توفى إلى طهران.. قد أعد لاستقبال الشاه الابن محمد رضا بهلوى.

أيام الوداع

بعد إجراء العملية للشاه يوم ٣٠ يونيه بدأت الحالة فى التحسن، ودرجة الحرارة هبطت تدريجيًا نتيجة التعامل بالمضادات الحيوية، والهزال الشديد ونقص الوزن تمت السيطرة عليهما، وهدأت الحالة عموما وبدأت حالة شبه الغيبوبة التى سيطرت على الشاه فى الزوال وضغط الدم عاد لمعدله الطبيعى، وأعلن الأطباء أن حالة الشاه أصبحت مستقرة.

وكان الشاه عمومًا فى هذه الفترة يستطيع مغادرة الفراش والجلوس على مقعد.

وكان أيضًا يسير لدقائق فى الردهات المجاورة لحجرته.

وكان يتحدث مع مرافقيه.. بل وشوهد ضاحكًا فى كثير من الأوقات لأول مرة منذ مدة طويلة.

وظل كذلك عدة أيام..

حتى قوى الأمل لدى أكثر أفراد الأسرة والمرافقين والأصدقاء فى احتمالات الشفاء.

ولم يكن أحد يدرى أنها صحوة الموت.

اليوم الأشد حزنًا

ففى يوم ٢٦ أُصيب الشاه بصدمة دورية نتيجة كل هذه المضاعفات التى سبق الكلام عنها.

وأُصيب بنزيف من الخُراج الذى نتج عن عملية استئصال الطحال والتى أصيب فيها بنكرياس الشاه ليُكَون ذلك الخراج.

نزف الشاه لمدة ٦ ساعات متصلة.

وارتفعت حرارته إلى ٤٠ درجة ونصف

وكانت آخر كلمة قالها للأطباء الذيى تجمعوا حوله:

« أرجوكم.. اتفقوا على برنامج لتنفيذه فى أسرع وقت ممكن وأبلغونى به».

كان ذلك فى الساعة الحادية عشرة صباحًا.

وحدث ما حدث...

وأطبق جفونه..

وراح فى غيبوبة دامت مع النزيف حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، وفى العاشرة مساء، كان كل من يستطيع أن يقدم شيئًا من كبار أطباء مصر قد تقاطر على المستشفي، حيث هناك أشهر أطباء فرنسا.

وامتلأت ردهات جناح الشاه فى مستشفى المعادى بمرافقى الشاه وفى مقدمتهم أسرته بالطبع.

أبرزهم بلاشك الشهبانو التى كانت تقف دائمًا بجوار الفراش، ولم تغادر مكانها مطلقًا طوال ٢٤ ساعة كاملة سابقة على الوفاة، تساندها والدتها.

وهناك كانت الأميرة أشرف.. شقيقة الشاه التوأم الشرسة قوية الشكيمة والتى كانت فى حالة ذهول تام.

وكان الأمير رضا ولى العهد الذى وصل القاهرة قادمًا من أميركا حيث يدرس وإخوته.

وكان.. وكان..

وبعد منتصف الليل اجتمع الأطباء والأمير رضا..

وناقش الأطباء المصريون والفرنسيون الحالة، وكل ماتم من إجراءات، وكل الاحتمالات، وأعلنوا أنه لم يعد أمامهم شيء بالمرة يستطيعون عمله.

وفى الخامسة صباحا.

كانوا يعلنون.

«أن الحالة ميؤوس منها».

وفى هذا الوقت كان الشاه قد غاب من الوعى تمامًا، ودخل فى غيبوبة الموت، وتداعت جميع أجهزة جسده للانهيار السريع، وآخرها القلب الذى صمد طويلاً، حتى الساعة التاسعة وخمسين دقيقة من صباح يوم الأحد ٢٧ يوليو ١٩٨٠.

ووقفت الشهبانو تشد على يد الفريق الطبى، الذى لازم الشاه خلال ساعاته الأخيرة.

وطلبت شيئًا واحدًا..

هو أن يتم «تجهيز» جثة الشاه على الطريقة الإسلامية.

وبرغم محاولات التماسك الجاهدة التى بذلتها الشهبانو للتماسك، لم تستطع أن تمنع نفسها من الانخراط فى النحيب وهى تهذى بكلمات فارسية.. وتحتضن أولادها.

ولم يستطع أحد من الحاضرين.. رجالاً ونساءً، أن يمنع نفسه من البكاء.

وفى الساعة الحادية عشرة، كان الجميع يغادرون المستشفى، فقد نقل جثمان الشاه إلى ثلاجة موتى مستشفى المعادى.

ولم يعد هناك شىء ينتظرون من أجله.

إعلان الوفاة وأجهزة الإعلام

كان الرئيس السادات فى الإسكندرية لحضور احتفال جامعة الإسكندرية وفور إبلاغه النبأ، تأجل الاحتفال، وعاد الرئيس فورًا إلى القاهرة.

ليعلن فى بيان نقلته محطات القاهرة الإعلامية للعالم أجمع أن مصر تودع شاه إيران بكل التقدير والاحترام بعد أن أدت ما تفرضه علينا تعاليم الإسلام.

ونشرت كل أجهزة الإعلام فى العالم كله خبر وفاة الشاه، وتناولت سيرته وقد اختلفت فى التناول، ولكنها كانت جميعًا تتكلم.. فى النهاية.

تكلمت عن:

«نهاية الطاغية».

«نهاية نهاية السفاح».

«نهاية الرحلة الحزينة».

«نهاية المتاعب».

«نهاية... نهاية.. نهاية......

كل من وجهة نظره، وميوله، والأهم، تمويله.

وحتى هؤلاء الذين نقلوا وقائع الجنازة المهيبة للشاه للعالم أجمع على الهواء مباشرة عن طريق القمر الصناعى، حيث أعدت الترتيبات لذلك.

حتى هؤلاء كانت تعليقاتهم تتساب رغم الموكب ورهبة الموت، بهذا التفاوت وهذا الاختلاف.

جنازة عسكرية

وعادة فى مثل حالات الوفاة هذه ما يتأخر تشييع الجنازة لإتاحة الفرصة لمن يريد المشاركة فيها..

وفى الساعة الحادية عشرة والربع من قبل ظهر يوم ٢٩ أغسطس ١٩٨٠ بدأت مراسم الجنازة الرسمية للشاه الذى كان جثمانه قد نُقل إلى قصر عابدين لتبدأ الجنازة من هناك.

وخرجت الجثة من داخل القصر إلى الفناء، حيث وضعت على مدفع وسط صفين من حرس الشرف الجمهورى.

وعزفت الموسيقى السلام الإمبراطورى الإيرانى.

لنبدأ الجنازة، يتقدمها الحرس الجمهورى.

وخلف المدفع الذى يحمل الجثة، كانت صفوف المشيعيين.

وكان الرئيس السادات والشهبانو وسط الصف الأول، وأيضا الرئيس الأميركى الأسبق ريتشارد نيكسون، وملك اليونان السابق قسطنطين، وأسرة الشاه، وأسرة الرئيس السادات.

وضمت الصفوف التالية كبار المشيعين من مصر، ومن غيرها.

وعند مسجد الرفاعى، كان ينتظر الجنازة حرس شرف من مختلف أسلحة القوات المسلحة المصرية، أدوا التحية العسكرية للجثمان الذى تقدم أفراد من القوات البحرية ليحملوه إلى مدفنه.

بينما المدفعية تطلق ٢١ طلقة وتؤدى فصيلة ضرب النار سلام سلاح، وتعزف البروجية نوبة رجوع، ثم نوبة صحيان.

ويتقدم الرئيس الراحل السادات إلى السرداق الذى أُقيم فى المكان، لتقبل العزاء.

ثم يتحرك ركب المشيعين..

جنازة محترمة مهولة رهيبة.

ولكن هل يستفيد الراقد فى النعش منها شيئًا؟.

■ ■ ■

الملك فيصل آل سعود



■■ الرجل الذى وقّع وثيقة استشهاده بيده.
كان كل أمله صلاة ركعتين فى المسجد الأقصى .. فماذا كان؟
خرج هنرى كيسنجر من اجتماعه بإسحاق رابين وهو يبكى وينتحب: «سامح الله فيصل.. سامح الله فيصل».

تشابه

وهكذا بعد هذا الاستعراض السريع لحياة الشاه محمد رضا بهلوى ونهايته نجد أن بينه وبين الملك فاروق آخر ملوك مصر تشابهًا كبيرًا..

أوله وأعظمه أن كلاهما سعى بفكره البشرى إلى ما تصور أنه يمكن لعرش أسرته ولى العهد.

توصل كلاهما بما نعلم من ظلم واضطهاد لأقرب الناس إليه، وأولادهم بمودته الزوجة، ناسيًا أن لله تعالى فى كل الأمور الكلمة الأخيرة.

بعد ولى العهد وبعد الظن بتمكين العرش.

يسقط الملك ويسقط العرش ويضيع ولى العهد.

ثم هما فى أخلاقهما فى تشابه عظيم.

الطغيان.

ظلم الشعب.

الثروة الطائلة.. المنهوبة.

وأيضا، وهو الشىء شديد الغرابة فى اشتراك السفير الأميركى.. فى نهاية كليهما.

والنهاية... المفجعة.

وتناقض

وتصير صورة «ملوك الإسلام» غير كريمة.

ولكن.. نلحق بصورة أخرى..

لملك آخر..

آثر الموقف والشهادة.

يبكيه شعبه للآن.

هو أبو عبدالله.

الشهير بالملك فيصل.

الملك فيصل آل سعود

حكم الملك فيصل السعودية بين عامى ١٩٦٤, ١٩٧٥، وهى فترة فى حياة الشعب السعودى، كانت وتظل طويلاً علامة بارزة على طريق تقدم الشعب السعودى ورفاهيته. حيث شهدت طفرة تقدمية أثرت كثيرًا فى حيوات الناس بشكل مباشر.

تاريخ سياسى

حب.. الحرب والسلام

ولم يكن أثره بالنسبة لأمور الحكم بأقل من أثره بالنسبة للشعب، فهو بالنسبة للسياسية كان منذ صباه رجل المواقف الصعبة.

فهذا هو الأمير الذى شهدت الرياض مولده عام ١٩٠٦ يقود جيشًا جرارًا عام ١٩٢١ إلى عسير فاتحًا ـ أى وهو فى الخامسة عشرة من عمره ـ.

وذلك بعد عودته من مهمة سياسية فى أوربا لتمثيل والده الملك عبدالعزيز آل سعود فى مؤتمر السلام الذى عُقد فى العاصمة الفرنسية باريس فى ١٩ يناير ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

كان سن الأمير فيصل فى ذلك الوقت ١٣ سنة ويسافر ممثلاً لأبيه فى هذا المؤتمر المهم.

وليس ذلك فحسب، بل كلفه العاهل السعودى الملك عبدالعزيز بمهمة

أخرى وهو فى طريقه إلى باريس.

كلفه بمقابلة جورج الخامس.. ملك بريطانيا لأمر فى منتهى الأهمية والخطورة وهو بحث مشكلة الحدود بين نجد، حيث بسط الملك عبدالعزيز نفوذه وبين الحجاز، حيث إمارة الهاشميين الحجازية، ورسم الحدود النهائية بينهما.

فتح جدة

وفى سنة ١٩٢٤ وجه العاهل السعودى عبدالعزيز آل سعود ولده الشاب ذا العشرين ربيعاً إلى الحجاز ليفتح جدة ثم مكة، ليعينه أبوه نائباً للملك فى الحجاز عام ١٩٢٥.

حيث يبدأ عهدًا جديدًا فى الجزيرة العربية هو العهد السعودى.

واليمن مرة أخرى

بعد أن أنهى الأمير الصبى فيصل حكم الأدارسة فى عسير عام ١٩٢١، وأخضعهم للحكم السعودى عادوا للثورة عام ١٩٣٤ بدعم من الملك يحى آل حميد الدين إمام اليمن (الملك) فسير إليهم الملك عبد العزيز جيشا من ثلاث فرق الفرقة الأولى منها بقيادة الأميرة فيصل، ليحتل «الحديدة» الميناء اليمنى على البحر الأحمر.

ويستنجد الإمام يحى بالإنجليز والإيطاليين، فتجرى مفاوضات بينهم وبين السعودية تنتهى بضم عسير نهائياً للأراضى السعودية، وأن يدفع الإمام يحى «جزية» لآل سعود.

وزير خارجية

وأنشئت فى السعودية وزارة للخارجية، شغلها الأمير فيصل، وهو

المنصب الذى ظل يشغله حتى صار ملكاً عام ١٩٦٤.

رجل دولى

وفى عام ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية، وأعلنت السعودية الحياد بين أطراف النزاع.

وكان الأمير فيصل فى الأمم المتحدة ممثلاً لبلاده.

مؤتمر فلسطين

وفى عام ١٩٣٩ أيضاً عُقد موتمر لبحث مشكلة فلسطين وذلك فى سان فرانسيسكو، وكان الأمير أيضًا ممثلاً لبلاده فى هذا المؤتمر.

ومؤتمر الخمسين

وفى سنة ١٩٤٥ مثّل الأمير فيصل بلاده فى «مؤتمر الخمسين»، وهو المؤتمر الذى انبثق عنه ميثاق الأمم المتحدة، وكان الأمير فيصل من بين الموقعين على وثائق هذا المؤتمر المهم.

وظل الأمير الشاب يمثل بلاده فى الأمم المتحدة حتى عام ١٩٤٨.

دورة ١٩٤٧

وكانت دورة الأمم المتحدة ١٩٤٧ مخصصة لبحث المشكلة الفلسطينية.. بعد قرار بريطانيا بالانسحاب من فلسطين والذى أصدرته ١٩٢٤.

وكان على الأمم المتحدة فى هذه الدورة أن تقرر.. هل فلسطين دولة عربية خالصة؟ أم دولة مقسمة بين العرب واليهود.

وأجمع ممثلو الدول العربية كلها واتفقوا على كلمة واحدة وهى رفض التقسيم.

واجتمع الأمير فيصل مع ممثل امريكا، واقنعه بوجهة النظر العربية، وحصل منه على وعد بتأييد الحق العربى.

وسعد الممثلون العرب كثيراً عندما نقل لهم الأمير فيصل هذه الموافقة، وانتظروا النتيجة.

ولكن النهاية كانت على غير الوعد، وكانت صدمة للأمير فيصل، قبل باقى العرب جميعاً.

والقت ظلالاً من الشك فى نفسه بالنسبة للسياسة الأميركية.

ومات الملك

وفى ٩ نوفمبر عام ١٩٥٣ تُوفى العاهل السعودى عبدالعزيز بعد أن اختار خليفا له.. ابنه الأكبر سعود.

وهنا نحب أن نشير إلى أن مسألة وراثة الحكم منذ ذلك التاريخ وحتى يشاء الله تعالى.. هى تركيبة خاصة جدا.

وأُسندت للأمير فيصل ولاية العهد بجانب الخارجية.

وفى سنة ١٩٦١ عُين رئيسًا للوزراء، وأيضا بجانب الخارجية.

ثم عُين نائباً للملك ١٩٦٣.

فيصل ملكا

وقد أدت بعض الظروف الداخلية فى السعودية إلى صدور قرار بإجماع رأى أسرة آل سعود وفتوى العلماء ورؤساء المحاكم والقضاة، وبقرار من مجلسى الوزراء والشورى وذلك بعزل الملك سعود وتعيين فيصل آل سعود ملكاً على السعودية سنة ١٩٦٤.

صدام مع عبدالناصر

دخلت القوات المصرية اليمن سنة ١٩٦٢ مساندة لانقلاب عبدالله السلال وساندت السعودية الأمير البدر الإمام اليمنى المخلوع.

وحرص الملك فيصل على أن يبقى الصدام فى أضيق الحدود.

وانتهى الخلاف فى مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧.

عهد خير

وشهدت المملكة عهد إصلاح فى كل الأمور السياسية والعسكرية، والاقتصادية.

حرب البترول

وعلى الساحة العربية قاد الملك فيصل حرب البترول سنة ١٩٧٣.. ليعلن أن البترول مقابل القدس النفط مقطوع حتى تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية إننا لانفكر ـ مطلقاً ـ فى فرض حظر بترولى على أية دولة ونتمنى ألا ترغمنا الظروف على أن نفعل مرة أخرى شيئا لانريده».

وأن كل أمله هو «صلاة ركعتين.. فى المسجد الأقصى».

رأى

وفى اعتقادى الشخصى أن الملك فيصل عندما أعلن شعار

«البترول مقابل القدس» كان يوقع بيده على وثيقة استشهاده طواعية واختياراً.

وقبل اغتياله بيومين فقط كان يقول فى حديث للتليفزيون الأميركى:

«إن إعادة السيادة العربية على القدس مسألة أساسية بالنسبة لنا.. ولا يمكننا أن نتخلى عنها».

مباحثــات

وفى نفس يوم ٢٣ مارس ١٩٧٥ كان هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأميركى يجرى مباحثات بين العرب واسرائيل بطريقة المكوكية فى التنقل بين هذه العاصمة وتلك، وكان يحمل مقترحات يزور بسببها إسرائيل.

واجتمع معه إسحق رابين رئيس الوزراء الاسرائيلى.

وبعد ذلك اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى.

ورفضت الحكومة الاسرائيلية المقترحات الأميركية.. وكان كيسنجر ينتظر النتيجة. فى صالون مجاور للاجتماع، وعندما ابلغه رابين الرفض، سار كيسنجر ببطء خارج المكان، ولم يستطع أن يتحكم فى دموعه التى انهمرت من عينيه بشدة.

وسُمع وهو يتمتم..

«سامح الله فيصل.. سامح الله فيصل»

واغتيــال

وبعد مضى ٢٤ ساعة فقط من هذا الموقف، وفى ظهر يوم الجمعة ٢٥ مارس ١٩٧٥ كان الأمير فيصل بن ساعد ابن أخ الملك فيصل يطلق النار على عمه الملك فى مكتبه.

وعندما علم كيسنجر بالنبأ أسرع إلى مكتبه فى وزارة الخارجية فى واشنطن فى منتصف الليل ليرسم استراتيجية جديدة للسياسة الأميركية فى الشرق الأوسط.

وليبدأ عصراً جديداً فى المملكة العربية السعودية..

بل عصر جديد فى المنطقة العربية كلها.

فهرس المحتويات